سلسلة أركان الإيمان ٣

الإيمان بالقرآن الكريم

وَالكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ

د. علي محمد محمد الصَّلَّابي



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقرآن عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: 21].

سلسلة أركان الإيمان (5)

الإيمان بالقرآن الكريم

والكتب السماوية

تأليف

الدكتور علي محمد محمد الصّلاّبي

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

الإهداء

إلى كل إنسان يبحث عن منهج الله في الوجود

أهدي هذا الكتاب..

قال تعالى:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

[الكهف: 110].

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ ﴾

مقدمة

إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذُ باللهِ من شرور أنفسنا، ومن سيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران: 102].

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: 1].

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأجزاب: 70-71].

يا ربِّ لك الحمدُ حتى ترضى، ولك الحمدُ إذا رضيتَ، ولك الحمدُ بعد الرضا.

أمّا بعدُ: فهذا الكتابُ يتحدّث عن الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية، وهو من ضمن سلسلة أركان الإيمان، وقد قمت بتقسيمه إلى بابين؛ أما الباب الأول: فقد خصص للإيمان بالقرآن الكريم، وهو ينقسم إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: تحدّثت فيه عن القرآن الكريم، تعريفه وعظمته وأسماؤه، ثم صفاته، ومنها: الحكيم، والعزيز، والكريم، والمجيد، والعظيم، والبشير، والنذير.

وفي الفصل الثاني: أشرت إلى خصائص القرآن الكريم، والتي من أهمها كونه كتاب إلهي، ومحفوظ ومعجز، ومبيَّن وميسَّر، وكتاب هداية، وكتاب الإنسانية كلها والزمن كله، ونزل بأرقى اللغات وأجمعِها، ومهيمنٌ على الكتب السماوية السابقة.

وفي الفصل الثالث: تكلمت عن مقاصد القرآن الكريم، والتي من أهمها، تصحيح العقائد والتصورات، وتزكية النفس البشرية، وعبادة الله وتقواه، وإقامة العدل بين الناس، والشورى، والحرية، ورفع الحرج، وتقرير كرامة الإنسان بالأخلاق والفضائل، وتقرير حقوق الإنسان، كحق الحياة والحرية والمساواة والعدالة، وحق الفرد في محاكمة عادلة، وحق الحماية من تعسف السلطة، وحق الفرد في حماية عرضه وسمعته، وحق اللجوء، وحقوق الأقليات، وحق المشاركة في الحياة العامة، وحق الدعوة والبلاغ والحقوق الاقتصادية، وحق المِلْكية، وحق العامل، وحق الفرد في كفايته من مقومات الحياة، وتأكيد حقوق الضعفاء.

ومن مقاصد القرآن الكريم: تكوين الأسرة الصالحة، وإنصاف المرأة وتحريرها من ظلم الجاهلية، وبناء الأمة الشهيدة على الناس، والسماحة والرحمة، والوفاء بالعهود والعقود.

وفي الفصل الرابع: تكلّمت عن جمع القرآن وكتابته، وقد بيّنت المراحل التي مرَّ بها المشروع الحضاري في جمع القرآن الكريم، وكتابته من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

أما الباب الثاني: فقد تحدّث عن الكتب السماوية، وقد تضمن خمسة فصول:

الفصل الأول: في وجوب الإيمان بالكتب السماوية .

والفصل الثاني: في الكتب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

والفصل الثالث: في تحريف الكتب السابقة .

والفصل الرابع: في أهمية الإيمان بالكتب السماوية.

أما الفصل الخامس: ففي بيان أن القرآن الكريم نسخ الكتب السابقة كلها.

هذا وقد انتهيتُ من هذا الكتاب يوم الخميس في الساعة السادسة إلا ربع مساءً بتاريخ 24 شعبان 1431هـ الموافق 2010/8/5م، والفضل للهِ من قبلُ ومن بعدُ، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبّل هذا العمل، ويشرح صدورَ العباد للانتفاع به، ويبارك فيه بمنه وكرمه وجُوْده، قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: 2].

ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقفَ بقلب خاشعٍ منيبٍ أمام خالقي العظيم، وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجُوده، متبرئاً من حولي وقوتي، ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي، وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل، وربي الكريم هو المعين، وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلّى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي لتبلّد مني العقل، ولغابت الذاكرة، وليبست الأصابع، وجفّتِ العواطف، ولتحجّرت المشاعر، ولعجز القلم عن البيان، اللهم بصرني بما يرضيك، واشرح له صدري، وجنبني اللهم ما لا يرضيك، واصرفه عن قلبي وتفكيري، وأسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن تجعل عملي لوجهك خالصاً، ولعبادك نافعاً، وأن تثيبني على كلِّ حرف كتبته، وتجعله في ميزان حسناتي، وأن تثيب إخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد الذي لولاك ما كان له وجودٌ ولا انتشارٌ بين الناس، ونرجو من كل مسلم




يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: 19].

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

علي محمد الصَّلاّبي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

Website.www.alsallab.com

Mail: info@alsallab.com

الباب الأول : الإيمان بالقرآن الكريم

الفصل الأول: القرآن الكريم: تعريفه، عظمته، أسماؤه، صفاته

الفصل الثاني: خصائص القرآن الكريم

الفصل الثالث: مقاصد القرآن الكريم

الفصل الرابع: جمع القرآن الكريم وكتابته

الفصل الأول : القرآن الكريم

تعريفه، عظمته، وأسماؤه، صفاته

المبحث الأول: تعريف القرآن الكريم

المبحث الثاني: عظمة القرآن الكريم

المبحث الثالث: أسماء القرآن الكريم

المبحث الرابع: صفات القرآن الكريم

المبحث الأول: تعريف القرآن الكريم

أولاً . القرآن لغة:

اتفق أهلُ العلمِ رحمهم الله على أنَّ لفظَ «قرآن» اسمٌ وليس بفعلٍ ولا حرفٍ، لكنّهم اختلفوا فيه من جهة الاشتقاق أو عدمه، ومن جهة كونه مهموزاً أو غير مهموزٍ، ومِنْ جهة كونه مصدراً أو وصفاً على أقوال عدة تجمل فيما يأتي[1]:

القول الأول: إنه اسم علم غير منقول، وضع من أوّل الأمر علماً على الكلام المنزَّل على محمد صلى الله عليه وسلم، وهو اسمٌ جامدٌ غيرُ مهموز، مثل التوراة والإنجيل، وهذا القولُ مرويٌّ عن جماعةٍ من العلماء منهم: الشافعي، وابن كثير، وغيرهما رحمهم الله جميعاً، وقد نقل ابن منظور أنَّ الشافعي رحمه الله كان يقول: القرآن اسمٌ، وليس بمهموزٍ، ولم يؤخذ من قرأتُ، ولكنّه اسمٌ لكتابِ اللهِ مثل التوراة والإنجيل[2].

القول الثاني والثالث: هما قولان للقائلين بأن لفظ القرآن مهموز[3]:

الأول: أنّ القرآن مصدر «قرأ» بمعنى «تلا» كالرجحان والغفران، ثم نُقِلَ من المصدر، وجُعِلَ اسماً للكلام المنزَّل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ويشهد له قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قرأناهُ فَاتَّبِعْ قرآنهُ ﴾ [القيامة: 18] أي: قراءته.

وقول حسان بن ثابت يرثي عثمان رضي الله عنه:

ضَحَّوا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ... يُقَطِّعُ الليلَ تَسْبِيْحاً وقرآنا

أي: قراءةً[1].

[1] معجم مقاييس اللغة، (396/2)، المصباح المنير، ص (259)، لسان العرب، (128/1 . 131).

[2] لسان العرب (1/ 128) مادة ((قرأ)).

[3] معنى مهموز: أنّ الهمزة في لفظ «القران» أصلية، من «قرأ».

الثاني: أنّ القرآن وصفٌ على وزن فعلان، مشتقٌّ من «القَرْءِ» بمعنى الجمع، ومنه: قرأ الماءَ في الحوض؛ إذا جمعه، وقرأتُ الشيءَ قرآناً: جمعته وضممت بعضَه إلى بعض[2]. وسمي القرآن قرآناً، لأنّه جمعَ القِصَصَ، والأمرَ والنهيَ، والوعدَ والوعيدَ، والآيات والسور بعضها إلى بعضٍ، وهو مصدرٌ كالغفران والكفران[3].

القولان الرابع والخامس: هما قولان للقائلين بأنّ لفظ القرآن غيرُ مهموزٍ، لكنّهم اختلفوا في أصل اشتقاقه على قولين أيضاً:

الأول: أنّه مشتقٌّ من القرآن، تقول: «قَرَنْتُ الشيء بالشيء» إذا ضَممتُ أحدُهما إلى الآخر.

قالوا: فسُميّ القرآن به: لِقران السُّور والآيات والحروفِ فيه، ومنه سُمّيَ الجمعُ بين الحجِّ والعمرة في إحرامٍ واحدٍ قراناً[4].

الثاني: أنّه مشتقٌّ من «القرائن» جمعُ قرينة، لأنّ آياته يُصدِّقُ بعضُها بعضاً، ويُشبه بعضُها بعضاً[5].

ويظهر ـ والله أعلم ـ أنّ أرجحَ هذه الأقوالِ هو القولُ الثاني، لِقُربِ اشتقاقه من كلمة القرآن لفظاً ومعنى. وأصبح لفظ القرآن ـ بعد ذلك ـ علماً على الكتابِ المنزل[6].

---

[1] عظمة القران الكريم، محمود الدوسري ص (47).
[2] لسان العرب (128/1).
[3] عظمة القران الكريم ص (47)، ومن القائلين بهذا القول الزجاج.
[4] البرهان في علوم القران، للزركشي (278/1).
[5] الإتقان في علوم القران، للسيوطي ص (137).
[6] عظمة القران الكريم ص (49).

ثانياً ـ القرآن اصطلاحاً:

وقد ذكر العلماء رحمهم الله للقرآن الكريم تعريفاً اصطلاحياً يُقرِّبُ معناه، ويميزه عن غيره، فعرّفوه بأنه: كلامُ اللهِ المنزلُ على نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم، المعْجِزُ بلفظه، المتعبَّدُ بتلاوته، المكتوبُ في المصاحفِ، المنقولُ بالتواتر[1].

* * *

[1] المصدر نفسه ص (49).

المبحث الثاني : عظمة القرآن الكريم

تحدّث المولى عزّ وجلّ في كتابه عن عظمة القرآن الكريم، ومن خلال آياته الحكيمة نبيّن هذه العظمة، وإليك التفصيل:

1. ثناء الله على كتابه:

أثنى الله تعالى على كتابه العزيز في آيات كثيرة، ممّا يدلُّ على عظمته؛ فقد وصفه «بالعظيم» في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقرآن الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: 87].

ووصفه «بالإحكام» في قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آياتهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1].

وذكر هيمنته على الكتب السابقة في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48]. وهذا الكتاب هو المهيمن الحافظ لمقاصدِ الكتب المنزلةِ قبله، الشاهد المؤتمن على ما جاء فيها، يُقرُّ الصحيحَ فيها، ويُصحّحُ الخطأ.

ووصفه في أم الكتاب بأنه «عليٌّ حكيم» في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: 4]. فهذه شهادةٌ من الله تعالى بعلوِّ شأن القرآن وحكمته، ولا ريبَ أنَّ من عظمة القرآن أنه «عليٌّ» في محلّه، وشرفه، وقدره، فهو عالٍ على جميع كتب الله تعالى، بسبب كونه معجزاً باقياً على وجه الدهر[1]. ومعنى الحكيم: المنظومُ نظماً متقناً، لا يعتريه أيُّ خللٍ في أي وجهٍ من الوجوه، فهو حكيمٌ في ذاته،

---

[1] التفسير الكبير (27 / 167).

حاكمٌ على غيره، والقرآن «حكيم» كذلك فيما يشتمل من الأوامرِ، والنواهي، والأخبار، وليس فيه حكمٌ مخالِفٌ للحكمة والعدل والميزان.

ومن ثناء الله تعالى على القرآن أن وصفه في ثلاث سور بأنه «كتاب مبارك». قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخرةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام: 92]. وقال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155]. وقال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ [الأنبياء: 50]. وبركة هذا الكتاب تمتدّ إلى يوم القيامة، وعطاؤه نامٍ لا ينفد .. يواكِبُ الحياة بهذا العطاء، ثم يأتي شفيعاً لأصحابه[1].

2 . عظمة مُنَزِّلِهِ سبحانه وتعالى:

العظيم: ذو العظمة والجلال في ملكه وسلطانه عزّ وجلّ، والعظمةُ صفةٌ من صفاتِ الله، لا يقومُ لها خلق، والله تعالى خلق بين الخلق عظمةً يعظم بها بعضُهم بعضاً، فمن الناس من يعظَّم لمال، ومنهم من يُعَظَّم لفضلٍ، ومنهم يعظَّمُ لعلمٍ، ومنهم من يعظَّم لسلطانٍ، ومنهم من يعظَّم لجاهٍ، وكل واحد من الخلق إنما يعظم بمعنى دون معنى، والله عزّ وجلّ يعظّم في الأحوال كلها، فينبغي لمن عرفَ حقّ عظمة الله ألا يتكلّم بكلمةٍ يكرهها الله، ولا يرتكب معصية لا يرضاها الله، إذ هو القائمُ على كلّ نفسٍ بما كسبت[2].

فالله تعالى هو العظيمُ المطلق؛ لأنّه عظيمٌ في ذاته وأسمائه وصفاته كلها، فلا يجوزُ

---

[1] عظمة القران الكريم ص(59).

[2] النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، محمد بن حمد (1 / 265).

قَصْرُ عظمته على شيءٍ دون شيءٍ منها، لأنَّ ذلك تحكم لم يأذن به الله[1].

فمن عظمته تعالى: أنّه لا يَشُقُّ عليه أنّ يحفظ السماواتِ السبع والأرضين السبع، ومن فيها، وما فيها، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: 255].

وتتجلّى عظمةُ القرآن العظيمِ في عظمة مُنزِّله جلّ جلاله، ويتّضحُ ذلك جلياً في عِدّة آيات، منها:

قوله تعالى: ﴿الم ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: 1 . 3].

وقوله تعالى:﴿حم ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [الجاثية،الأحقاف:1-2].

3 . فضلُ جبريل الذي نزل بالقرآن:

نوّه الله تعالى بشأن من نزل بالقرآن على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو جبريلُ عليه السلام، أمينُ الوحي الإلهي، وذكر فضله في عدة آيات، منها:

قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: 102].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۝ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ [الشعراء: 192 . 194]. وقد وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بخمس صفات في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير:19-21].

---

[1] عظمة القران الكريم ص (60).

وهذه الصفاتُ الخمسُ تتضمّن تزكيةَ سندِ القرآن العظيم، وأنّه سماعُ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من جبريل عليه السلام، وسماع جبريل الأمين من رب العالمين، فناهيك بهذا السند علواً وجلالة[1].

4 . القرآن تنزيل رب العالمين:

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ [الشعراء: 192-193].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1].

وفيه ضميرُ العظمةِ، وإسنادُ الإنزال إليه تشريفٌ عظيم للقرآن[2].

فمن عظمة القرآن أنّه نزل من الله تعالى وحده لا من غيره، لنفع الناس وهدايتهم، فاجتمعت في القرآن العظيم فضائل، منها:

- أنه أفضل الكتب السماوية.
- نزل به أفضل الرسل وأقواهم، جبريل الأمين على وحي الله تعالى.
- نزل على أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.
- نزل لأفضل أمة أخرجت للناس.
- نزل بأفضل الألسنة وأفصحها، وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين[3].

5 . القرآن مستقيم ليس فيه عوج:

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَناً﴾ [الكهف: 1 . 2].

---

[1] عظمة القران الكريم ص (93).

[2] التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور (402/30).

[3] تفسير السعدي (485/3).

ونفي العوج عن القرآن له عدة أوجه، منها:

الأول: **نفي التناقض عن آياته**، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ **[النساء: 82]**.

الثاني: إن كل ما ذكر الله تعالى في القرآن من التوحيد والنبوة والأحكام والتكاليف، وهو حق وصدق، ولا خلل في شيء منه البتة[1].

وأخبر تعالى كذلك عن القرآن أنّه ليس فيه تضاد، ولا اختلاف، ولا عيب من العيوب التي في كلام البشر، فقال تعالى: ﴿قرآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ **[الزمر: 28]**، أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه، ولا في معانيه، وهذا يستلزمُ كمال اعتداله واستقامته[2].

فقد وصف الله تعالى كتابه العزيز بأوصاف عظيمة تدلُّ على أنه كامل من جميع الوجوه، وعظيم بكل ما تعبر عنه الكلمات، منها:

- **نفيُ العوجِ عنه:** وهذا يقتضي أنّه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلمٌ ولا عبثٌ.
- **إثبات أنه مستقيم مقيم:** فالقرآن العظيم مستقيم في ذاته، مقيم للنفوس على جادّة الصوّاب، وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يُخبرُ ولا يأمر إلا بأجلّ الأخبار، وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفةً، وإيماناً، وعقلاً، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، والإخبار بالغيوب المتقدّمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه،تزكي النفوسَ وتطهرها وتنمّيها وتكمّلها لاشتمالها على كمال العدل، والقسط،

---

[1] التفسير الكبير، للرازي (64/21).

[2] تفسير ابن كثير (53/4)، تفسير السعدي (723/1 ـ 724).

والإخلاص، والعبودية لله رب العالمين، وحده لا شريك له، فحقيق بكتاب موصوف بما ذُكر، أن يَحمد الله تعالى نفسه على إنزاله[1]، وينفي العوج عن القرآن الكريم، وإثبات استقامته فتتجلّى عظمته، وعلوّ شأنه، ومنزلته عند الله[2].

6. خشوع الجبال وتصدُّعها:

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقرآن عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ **[الحشر: 21]** أي: لاتّعظ الجبلُ، وتصدّعَ صخرُه، من شدّة تأثره من خشية الله، ففي هذا: بيانُ حقيقة تأثير القرآن وفعاليته في المخلوقات، ولو كانت جبلاً أشمَّ، وحجراً أصمّ[3]، وضُرب التصدّعُ مثلاً لشدة الانفعال والتأثر؛ لأن منتهى تأثر الأجسام الصلبة أن تنشق وتتصدّع، ولا يحصل ذلك بسهولة.

والخشوعُ: هو التّطأطؤ والرّكوع، أي: لرأيته ينزل أعلاه إلى الأرض.

والتصدّع: التشقق، أي: لتزلزل وتشقق من خوف الله تعالى[4].

ولا شك أنَّ هذا تعظيمٌ لشأن القرآن، وتمثيلٌ لعلوّ قدره، وشدّة تأثيره في النفوس، لما فيه من بالغِ المواعظ والزواجر، ولما اشتمل عليه من الوعد الحقّ، والوعيد الأكيد، فإذا كان الجبلُ في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن كما فهمتموه ـ لخشع وتصدّع من خوف الله تعالى، فكيف يليقُ بكم أيُّها البشر ألاّ تلينَ قلوبكم وتخشعَ وتتصدّعَ من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره، وتدبّرتم كتابه[5]، والمقصود من إيراد الاية: إبرازُ عظمةِ القرآن الكريم، والحثُّ على تأمل مواعظه الجليلة، إذ لا عذر لأحد في

---

(1) عظمة القران الكريم ص (70).
(2) المصدر نفسه ص (70).
(3) أضواء البيان (76/8).
(4) التحرير والتنوير (104/28).
(5) تفسير ابن كثير (343/4. 344).

ذلك، وأداء حق الله تعالى في تعظيم كتابه، وتوبيخ من لا يحترمُ هذا القرآن العظيم، وفيه كذلك تمثيل وتخييل لعلوِّ شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ[1].

7 . انقياد الجمادات لعظمة القرآن:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ **[الرعد: 31]**.

فهذا شرطٌ جوابُه محذوف، والمرادُ منه: تعظيمُ شأن القرآن العظيم.

والمعنى: ولو أنَّ قرآناً سُيرت به الجبال عن مقارّها، وزُعزعت عن مضاجعها، أو قُطّعت به الأرض حتى تتصدّع وتتزايل قِطَعاً، أو كُلم به الموتى، فتسمع وتجيب، لكان هذا القرآن، لكونه غاية في التذكير، ونهاية في التخويف[2].

والمقصود: بيانُ عظم شأن القرآن العظيم، وفساد رأي الكفرة، حيث لم يقدّروا قدره العلي، ولم يعدّوه من قبيل الآيات فاقترحوا غيره، مما أُوتي موسى وعيسى عليهما السلام . فالمعنى: أي: بإنزاله أو بتلاوته ﴿وَلَوْ أَنَّ قرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾، وزعزعت عن مقارها كما فُعل ذلك بالطور لموسى عليه الصلاة والسلام أي: شققت وجُعِلت أنهاراً ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ﴾، كما فعل بالحجر حين ضربه موسى عليه السلام بعصاه، أو جعلت قِطَعاً متصدّعة أي: بعد ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ أحييت بقراءته عليها، كما أُحييت لعيسى عليه السلام، لكان هذا القرآن، لكونه الغاية القصوى في الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته[3].

---

[1] تفسير أبي السعود (233/8) زاد المسير (224/8).

[2] الكشاف، للزمخشري (498/2)، عظمة القران الكريم ص (72).

[3] تفسير أبي السعود (21/5 . 22).





8. تحدي الإنس والجن بالقرآن:

من مظاهر عظمة القرآن وعلوِّ شأنه، أنّ الله تعالى تحدّى الإنسَ والجنَّ أن يأتوا بمثله، أو بعشرِ سورٍ من مثله أو بسورةٍ مثله[1].

قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء 88].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [هود: 13. 14].

ومع ذلك كله، ما ثابوا إلى رشدهم، وما وجدوا ما يتكلّمون به، فعادوا لما نهوا عنه، وقالوا: «اختلقه محمد عمداً»، فاستدرجهم الله تعالى من حيث لا يعلمون، ووصل بهم إلى غايةِ التّبكيت والخذلان، وتحدّاهم أن يأتوا بسورةٍ مثلَ القرآن فعجزوا.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس: 38].

ولما بُهِتَ الذين كفروا؛ ولم يستسلموا؛ صاروا كالذي يتخبّطه الشيطانُ من المسّ، مرةً يقولون استهزاء: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: 31] وأخرى يقولون عابثين: ﴿ائْتِ بِقرآن غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: 15].

وصار أمرُهم على ما يقول الله العظيم: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

---

[1] عظمة القران الكريم ص (73).

الظَّالِمِينَ﴾[يونس: 39][1].

فهذا القرآن العظيمُ ليس ألفاظاً وعباراتٍ يحاول الإنس والجن أن يحاكوها، كلا وربّي، إنّه كلام الله تعالى، الذي تحدّى به الخلق كلهم، فقال عزّ من قائل حكيم: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: 88].

فهذا تنويهُ بشرفِ القرآن وعظمتِه، وهذه الاية ونحوها تُسمّى آيات التحدي، وهو تعجيزُ الخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن الكريم، أو سورة منه[2].

وكيف يقدرُ المخلوقُ من ترابٍ أن يكون كلامُه ككلام ربّ العالمين؟! أم كيف يقدِرُ الناقصُ الفقيرُ من كل الوجوه أن يأتيَ بكلام ككلام الكامل، الذي له الكمال المطلق، والغنى الواسع من جميع الوجوه؟ هذا ليس في الإمكان؛ ولا في قدرة الإنسان، وكل مَنْ له أدنى ذوق ومعرفة بأنواع الكلام، إذا وزن هذا القرآن العظيم بغيره من كلام البلغاء؛ ظهرَ له الفرق العظيم[3].

فعظمةُ القرآن، وعلوُّ شأنه، لا تجعل للخَلْق من إنسٍ وجِنٍّ مطمعاً في الإتيان بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً[4].

---

[1] عظمة القران الكريم ص (75).

[2] المصدر نفسه ص (76).

[3] عظمة القران الكريم ص (77).

[4] المصدر نفسه ص (77).

المبحث الثالث : أسماء القرآن الكريم

للقرآن الكريم أسماء عظيمة، من أهمها:

1 . الفرقان:

سمّى الله تعالى القرآن فرقاناً في أربع آيات في كتابه المبارك، وهي:

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[الفرقان: 1].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: 4].

وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقرآن هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة 185].

وقال تعالى: ﴿وَقرآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ [الإسراء: 106].

وذكر المفسّرون في سببِ تسمية القرآن بالفرقان أقوالاً، منها:

- سُمي بذلك، **لأنّ نزوله كان متفرّقاً**، أنزله تعالى في نيف وعشرين سنة، في حين أنَّ سائرَ الكتبِ نزلت جملةً واحدةً[1].
- سُمي بذلك، **لأنه يفرّق بين الحق والباطل**، والحلال والحرام، والمجمل والمبين، والخير والشر، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والسعادة والشقاوة، والمؤمنين والكافرين، والصادقين والكاذبين، والعادلين والظالمين، وبه سُمي عمر بن الخطاب رضي الله عنه الفاروق.

وقد بيّن ابنُ عاشور رحمه الله سببَ تسمية القرآن بالفرقان بقوله: ووجه تسميته

---

[1] عظمة القران الكريم ص (152).

الفرقان أنّه امتازَ عن بقية الكتب السماوية بكثرةِ ما فيه من بيان التفرقة بين الحق والباطل، فإنّ القرآن يَعْضُدُ هديه بالدلائل والأمثال ونحوها، وحسبُك ما اشتمل عليه من بيان التوحيد وصفات الله مما لا تجدُ مثله في التوراة والإنجيل، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11][1].

- وقيل: الفرقانُ: هو **النجاةُ**، سُمي بذلك لأنَّ الخلقَ في ظلمات الضلالات، وبالقرآن وجدوا النجاة، وعليه حمل المفسرون قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 53][2].

وسواء كانت تسميةُ القرآن العظيم بالفرقان؛ لأنّ نزوله كان متفرّقاً في نيف وعشرين سنة، بينما سائر كتب الله تعالى نزلت جملةً واحدةً، أو سُمي بذلك لأنّه يفرّق بين الحق والباطل، أو لأنّ فيه نجاة من ظلمات الضلالات، فهذا الاختلافُ في التنوع يدلُّ دلالةً صريحةً على عظمة القرآن، ورِفْعةِ منزلته عند الله تعالى، وعلوّ شأنه[3].

2 . البرهان:

سمّى الله القرآن برهاناً في اية واحدة في كتابه العزيز، وهي قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء: 174]. فهذا خطابٌ لكلّ أصحاب المللِ، اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم، أنَّ الله تعالى أقامَ بهذا القرآن الحجة عليهم، تُبرهن لهم بطلانَ ما هم عليه من الدين المنسوخ، وهذه الحجةُ تشمل الأدلة العقلية والنقلية والآيات الافاقية، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: 53].

---

[1] عظمة القران الكريم ص (153).
[2] المصدر نفسه ص (154).
[3] المصدر نفسه.

بل كفى بالقرآن العظيم وحده برهاناً على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة[1].

فالقرآن برهانٌ من الله لعباده، أقام به الحجةَ عليهم، وأظهر من خلاله أوضحَ الدلالات، وأقواها على موضوعاته ومعانيه وحقائقه في العقيدة والحياة، وكلُّ من تعامل مع أدلة القرآن في يُسرها ووضوحها، وتأثر قلبه وعقله بها، وقارنها بالأدلة والبراهين والأقيسة التي أوجدتها العقول البشرية، وقررتها وبينتها، كل من فعل ذلك يُدركُ طرفاً من البرهان القرآني، ويسره، ووضوحه[2].

وتتجلّى عظمة القرآن الكريم ومنزلتُه العالية من خلال تسميته بالبرهان، ذلك لأن الله تعالى أقامَ به الحُجة على عباده، تُبرهن لهم بطلان ما هم فيه من الدين المنسوخ، وهي حُجة متنوعة في الاستدلال لتستوعبها عقولُ البشرِ على اختلاف فهومهم وثقافاتهم، وهذا من رحمة الله تعالى وحكمته[3].

3 . الحق:

سمّى الله تعالى القرآن حقاً في مواضعَ عِدّة من كتابه، نأخذُ منها ما له صلة بموضوعنا، وهي: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ [الحاقة: 51]. أي: وإنّ القرآن لكونه من عند الله حقٌّ لا ريبَ فيه، ولا يتطرّقُ إليه شك[4].

وقال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: 18]. والقذف: الرّمي، أي: نرمي بالحقِ على الباطل أي: يقهره ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾

---

[1] فتح القدير (542/1)، أضواء البيان (79/7 . 80).

{قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ *}

[2] مفاتيح للتعامل مع القران ص (34).

[3] عظمة القران الكريم ص (156).

[4] فتح القدير، للشوكاني (401/5).

وأصلُ الدمغ: شجُّ الرأس حتى يبلغَ الدماغ، ومنه الدّامغة، والحق هنا: القرآن، والباطل: الشيطان في قول مجاهد[1].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [الأنعام: 66].

والضمير في قوله عائدٌ على القرآن؛ الذي فيه تصريفُ الآيات

وقوله تعالى: جملةٌ ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾، جملة اعتراضية، تتضمّن شهادةَ الله بأنّ هذا القرآن المنزَّل على هذا النبيّ الكريم صلى الله عليه وسلم هو الحقُّ من اللهِ[2]، والمعنى ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾، أي بالقرآن الذي جئتم به، والهدى، والبيان، ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾، يعني: قريشاً، ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾، أي: الذي ليس وراءه حق، ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾، أي: لستُ عليكم بحفيظ، ولستُ بموكل بكم[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود: 17]. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي بالقرآن، ولم يُصدق بتلك الشواهد الحقة. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ في شك من أمر القرآن، وكونه من عند الله عز وجل[4]، وفيه تعريضٌ بغيره صلى الله عليه وسلم، لأنّه معصومٌ عن الشك في القرآن[5].

وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ : أي: القرآن حق من الله تعالى لا مرية ولا شك فيه. وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، أي: إمّا جهلاً منهم وإمّا ظلماً وعناداً وبغياً، وإلا فمن قصده حسناً، وفهمه مستقيماً، فلابدّ أن يؤمن به،

---

[1] تفسير القرطبي (295/11).
[2] تفسير الثعالبي (529/1).
[3] تفسير ابن كثير (315/3
[4] تفسير أبي السعود (195/4).).
[5] فتح القدير، للشوكاني (288/2).

لأنه يرى ما يدعوه إلى الإيمان من كلِّ وجهٍ[1].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ۝ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِىءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: 48 . 49]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ أي: وهو الإسلام والقرآن[2]، فهذا القرآن العظيم الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم هو الحق: الحق القوي الذي يقذف به الله تعالى، فمن ذا يقف للحق الذي يقذف به الله تعالى؟

وكأنَّما الحق قذيفةٌ تصدعُ وتخرقُ وتنفذ، ولا يقفُ لها أحدٌ في طريق، يقذف بها الله تعالى علاّم الغيوب، فهو يقذف بها عن علم، ويوجهها على علم، ولا يخفى عليه هدفٌ، ولا تغيب عنه غاية، فالطريقُ أمامه تعالى مكشوف ليس فيه ستور[3].

ومن خلال تسمية القرآن الكريم باسم الحق تبرزُ عظمتهُ ومنزلتُه العالية، فلا بدّ أن يؤمنَ الناسُ بهذا الحق الأوحد، ويستجيبوا له؛ لأنّ مصدره هو الإله الأوحد جلّ جلاله[4].

4 . النبأ العظيم:

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ [ص: 67 . 68] أي: خبر عظيم، وشأن بليغ، وهو إرسالُ الله إياي إليكم أي: غافلون. في ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ أي: غافلون . في قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني:

---

(1) تفسير السعدي (359/2).
(2) زاد المسير (466/6).
(3) في ظلال القرآن (2915/5).
(4) عظمة القران الكريم ص (161).

القرآن[1]

وقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ [النبأ: 1 . 2].

ولاشك بأنّ القرآن نبأ عظيم، فمنذ إيجاد البشرية، وتكوينها، ما رأتْ ولا سمعتْ بمثل هذا القرآن العظيم، فهو عظيمٌ في أسلوبه، وعظيمٌ في روعته، وعظيمٌ في معناه، وعظيمٌ في جمال تركيبه، وعظيمٌ في وعده ووعيده، وعظيم في أحكامه، وعظيمٌ في أمره ونهيه، وعظيمٌ في أخباره وقصصه وأمثاله[2].

5 . البلاغ:

قال تعالى: ﴿هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ [إبراهيم: 52].

فلمّا بين البيان المبين في هذا القرآن قال في مدحه: ﴿هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ﴾، أي: يتبلّغون ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات، وأفضل الكرامات ما اشتمل عليه من الأصول والفروع، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد ﴿وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾، لما فيه من الترهيبِ من أعمال وما أعد الله لأهلها من العقاب[3].

6 . الروح:

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: 52].

والمعنى: ﴿وَكَذَلِكَ ﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾، وهو: هذا القرآن سمّاه روحاً، لأنّ الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير، وهو محض

---

[1] تفسير ابن كثير (43/4).

[2] عظمة القرآن الكريم ص (162).

[3] تفسير السعدي (428/1).

منة الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم؛ ولهذا قال تعالى ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي﴾ أي: قبل نزوله عليك ﴿مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ﴾ : أي: ليس عندك علمٌ بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أمياً لا تخطُّ ولا تقرأ، فجاءك هذا الروحُ الذي ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم[1].

7. الموعظة:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [يونس: 57] يعني: القرآن يتعظ به من قرأه وعرف معناه.

يا أيها الناس قد جاءكم كتاب جامع للحكمة العملية، الكاشفة عن محاسن الأعمال ومقابحها، المرغبة في المحاسن، والزاجرة عن المقابح.

قد جاءكم كتابٌ جامعٌ لكلّ المواعظ أو الوصايا الحسنة؛ التي تُصلح الأخلاق والأعمال، وتزجر عن الفواحش، وتشفي الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد، وتهدي إلى الحق واليقين والصراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة[2].

فكفى بالقرآن واعظاً، وكفى بالقرآن زاجراً، وكفى بالقرآن هادياً ومُذَكّراً[3].

8. الشفاء:

سمّى الله عزّ وجلّ القرآن العظيم شفاءً في ثلاثة مواضع من كتابه، وهي:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي

---

[1] تفسير السعدي (434/4-435).
[2] التفسير المنير في العقيدة والشريعة، وهبة الزحيلي (213/6).
[3] عظمة القرآن الكريم ص (173).

الصُّدُورِ﴾[يونس: 57]. أي: دواء للقلوب من أمراضها التي هي أشدُّ من أمراض الأبدان، كالشك، والنفاق، والحسد، والحقد، وأمثال ذلك[1].

وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82] فالقرآن كله شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين[2].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: 44].

فالقرآن الكريم شفاءٌ من أمراض القلوب والنفوس والجوارح، وأمراض السياسة والاقتصاد والحياة والحضارة، وغيرها من أمراض العصر، فمن عظمة القرآن الكريم، وعلوِّ شأنه، وعظمةِ تأثيره: أنَّ فيه الشفاء الكامل لأمراض الاعتقادات الباطلة، والأخلاق المذمومة، والأمراض الجسدية، وشفاؤه يمتدّ كذلك إلى الأمراض المعاصرة المزمنة؛ لو أخذ الناسُ بتعاليمه وأدويته النافعة فعملوا بها[3].

9 . أحسن الحديث:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: 23]. يعني: أحكم الحديث، وهو القرآن[4]، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله، هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن، عُلِمَ أنَّ ألفاظَه أفصحُ الألفاظ وأوضحُها، وأن معانيه أجلُّ المعاني، لأنه أحسنُ الحديث في لفظه ومعناه، متشابه في الحسن والائتلاف، وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه، حتى إنّه كلّما تدبّره المتدبر، وتفكّر فيه المتفكر، رأى من اتفاقه، حتى في

---

[1] روح المعاني (176/1).
[2] عظمة القرآن الكريم ص (175).
[3] عظمة القران الكريم ص (176).
[4] المصدر نفسه ص (177).




معانيه الغامضة ما يبهرُ الناظرين، ويجزم بأنّه لا يصدر إلا من حكيم عليم[1].

وقد سُمّي القرآن حديثاً في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، منها: قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: 185]. وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: 6]. وقوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾ [النجم: 59]. وقوله تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ [القلم: 44].

وكون القرآن العظيم أحسن الحديث على الإطلاق، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله تعالى، من حيث فصاحة ألفاظه ووضوحها، وجلالة معانيه وكثرتها ونفعها؛ دلّ ذلك على عظمته، وعلوّ شأنه ورفعته[2].

* * *

---

(1) المصدر نفسه ص (178).

(2) المصدر نفسه ص (179).

المبحث الرابع : صفاتُ القرآن الكريم

ذكر المولى عز وجل أوصافاً عديدة للقرآن الكريم، منها:

1 . الحكيم:

وصف الله تبارك وتعالى كتابه بأنّه حكيمٌ في عدة آيات، منها: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيات الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: 1]. وقال تعالى: ﴿يس ۝ وَالْقرآن الْحَكِيمِ﴾ [يس: 1 . 2]. فهذا قَسَمٌ من الله تعالى بالقرآن الحكيم، وقد وصفه بالحكمة، وهي وضعُ كلِّ شيء في موضعه اللائق به.

والقرآن الحكيمُ يخاطبُ كلَّ أحدٍ بما يناسبه ويؤثر فيه كائناً مَنْ كان، وهذا من مقتضيات أنْ يكونَ حكيماً.

والقرآن الحكيم يُربي أيضاً بحكمة، وفق منهج عقلي ونفسي مستقيم، منهج يوجه طاقات البشر إلى الوجه الصالح القويم، ويقرر للحياة كذلك نظاماً يسمحُ بكلّ نشاطٍ بشري في حدود ذلك المنهج الحكيم[1].

ومن إحكام آيات القرآن الحكيم:

- أنها جاءت بأجلِّ الألفاظ وأوضحها، وأبينها، الدّالةِ على أجلّ المعاني وأحسنها.
- أنها محفوظةٌ من التّغيير والتبديل، والزيادة والنقص والتحريف.
- أنّ جميعَ ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية كلّها مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبي

(1) في ظلال القرآن (2958/5).

من الأنبياء، ولم يأت ولن يأتي علم محسوس ولا معقول صحيح يناقض ما دلت عليه.

- أنها ما أمرت بشيء، إلا هو خالص المصلحة، أو راجحها، ولا نهت عن شيء، إلا وهو خالص المفسدة، أو راجحها، وكثيرا ما يجمع بين الأمر بالشيء، مع ذكر حكمته وفائدته، والنهي عن الشيء مع ذكر مضرته.
- أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ البليغ، الذي تعتدل به النفوس الخيرة، وتحتكم فتعمل بالجزم.
- أنك تجد آياتها المتكررة كالقصص والأحكام ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت فليس فيها تناقض ولا اختلاف.

وأنى للباطل أن يدخل على هذا الكتاب الحكيم، وهو تنزيل من حكيم حميد، والحكمة ظاهرة في بنائه، وتوجيهه، وطريقة نزوله، وفي علاجه للقلب البشري من أقصر طريق[1].

2- العزيز:

قال الله تعالى في وصف القرآن : ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾[فُصِّلَت:41] أي يصعب مناله ووجود مثله[2].

والعزيز: النفيس، وأصله من العزة، وهي المنعة؛ لأن الشيء النفيس يدافع عنه ويحمى عن النبذ، ومثل ذلك يكون عزيزا، والعزيز أيضا: الذي يغلب ولا يغلب، وكذلك

---

[1] تفسير السعدي (227/4).

[2] المفردات في غريب القرآن ص (235-236).

حجج القرآن[1].

ووصف تعالى الكتاب بالعزة؛ لأنه بصحة معانيه ممتنع الطعن فيه، والإزراء عليه، وهو محفوظ من الله تعالى[2]، وجميع أقوال المفسرين بأنه (عزيز) ما يلي:

- منيع من الشيطان لا يجدُ إليه سبيلاً، ولا يستطيع أن يغيره، أو يزيد فيه أو ينقص منه.
- كريم على الله، وعزيز على الله، وعزيز من عند الله.
- عديمُ النظير، منيعٌ من الباطل، ومن كل من أراده بتحريف أو سوء.
- يمتنع على الناس أن يقولوا مثله فهو غالبٌ وقاهرٌ، والمتأمل في هذه الأقوال يجدها جميعاً تنطبق على وصفاً ﴿عَزِيزٌ ﴾، وهي من اختلاف التنوع لا التضاد، تدل على عظمة القرآن، وعزته، وعلو شأنه، ورفعته.

فنحمد الله العزيز الذي أنزل كتاباً عزيزاً: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ **[فصلت: 41]** على نبي عزيز ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ **[التوبة: 128]**. لأمة عزيزة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ **[المنافقون: 8]**[3].

3 . الكريم:

قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُ لَقرآن كَرِيمٌ﴾ **[الواقعة: 75 . 77]**.

والكريم: اسمٌ جامع لما يحمد، وذلك أنّ فيه البيان والهدى والحكمة، وهو مُعظّم عند

---

[1] عظمة القرآن الكريم ص (179).
[2] التحرير والتنوير (71/25).
[3] تفسير ابن عطية (19/5).

الله عز وجل[1].

4 . المجيد:

قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قرآن مَجِيدٌ *فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ [البروج: 21 . 22].

وقال تعالى: ﴿ق وَالْقرآن الْمَجِيدِ ﴾ [ق: 1].

والمعنى: إن هذا القرآن . الذي كذّبوا به . شريفُ الرّتبةِ في نظمه وأسلوبه حتى بلغ حدّ الإعجاز، متناه في الشرف والكرم والبركة، وليس هو كما يقولون: إنّه شِعْرٌ وكهانة وسِحْرٌ، وإنما هو كلام الله المصون عن التغيير والتحريف، المكتوب في اللوح المحفوظ[2].

5 . العظيم:

لقد نوّه الله تبارك وتعالى بعظمة القرآن، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقرآن الْعَظِيمَ *لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: 87 . 88].

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: كما اتيناك القرآن العظيم فلا تنظرنَّ إلى الدنيا وزينتها وما متعنا به أهلها، استغنِ بما آتاك الله من القرآن العظيم، عمّا فيه من المتاع والزهرة الفانية[3]، فالقرآن هو النعمة العُظمى التي كل نعمة، وإن عظمت، فهي بالنسبة إليها حقيرةٌ ضئيلةٌ، فعليك أن تستغني به[4].

---

[1] زاد المسير (151/8).

[2] التفسير المنير (545/15).

[3] عظمة القران الكريم ص (196).

[4] الكشاف، للزمخشري (549/2).

6. البشير والنذير:

قال الله تعالى في وصف القرآن العظيم: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قرآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ [فصلت: 3 . 4]. فهذا وصف للقرآن العظيم أنه: يبشر من امن بالجنة، وينذر من كفر بالنار[1].

7. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

قال تعالى: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: 42].

فالله عز وجل لم يجعل للباطل مدخلاً على هذا الكتاب العزيز، وأنّى له أن يدخل عليه وهو صادر من الله الحق العظيم؟!

قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقرآن أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس: 37][2].

* * *

---

[1] تفسير ابن عطية (4/5).

[2] عظمة القرآن الكريم ص (199).





الفصل الثاني : خصائص القرآن الكريم

أولاً ـ القرآن الكريم كتاب إلهي

ثانياً ـ القرآن الكريم كتاب محفوظ

ثالثاً ـ القرآن الكريم كتاب معجز

رابعاً ـ القرآن الكريم كتاب مبين وميسَّر

خامساً ـ القرآن الكريم كتاب هداية

سادساً ـ القرآن الكريم كتاب الإنسانية كلها

سابعاً ـ القرآن الكريم كتاب الزمن كله

ثامناً ـ القرآن الكريم نزل بأرقى اللغات وأجمعها

تاسعاً ـ القرآن الكريم مصدّق لكتب الله السابقة ومهيمنٌ عليها




الفصل الثاني : خصائص القرآن الكريم

خصائصُ القرآن الكريم كثيرةٌ، منها:

أولاً . القرآن الكريم كتاب إلهي:

أولى خصائص القرآن الكريم، أنّه كتابُ الله تعالى؛ الذي يتضمّنُ كلماته إلى خاتم رسله وأنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم، فهو إلهيُّ المصدر: لفظاً ومعنًى، أوحاه الله إلى رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق الوحي الجلي، وهو نزول «الرسول الملكي» جبريل عليه السلام على «الرسول البشري» محمد صلى الله عليه وسلم، وليس عن طرق الوحي الآخرى من الإلهام أو النفث في الرّوع، ومن الرؤيا الصادقة أو غيرها.

قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1].

وقال سبحانه يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقرآن مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: 6].

وقال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء:105].

وقد اقتضت حكمةُ الله تعالى أنْ ينزّله منجماً وفقاً للحوادث؛ ليكونَ أرسخَ في مواجهة المحن والشدائد التي تنزل به وبأصحابه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقرآن جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ۝ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: 32–33].

وحكمة أخرى، وهي أنْ يقرأه الرسول الكريم على المؤمنين به على مهل، وحيث يستوعبونه حفظاً وفهماً وعملاً، كما قال الله عز وجل:﴿ وقرآنا قرأناه لتقرأه على

النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾[الإسراء: 106].

ولكن القرآن عند الله تعالى كتاب معلوم أوله وآخره، مسجَّلٌ في أم الكتاب، أو اللوح المحفوظ، أو الكتاب المكنون، كما صرّحَ بذلك القرآن نفسه: ﴿حم ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قرآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: 1 ـ 4].

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قرآن مَجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ [البروج: 21 ـ 22].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقرآن كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۝ لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ۝ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الواقعة: 77 ـ 80].

وأيُّ قارئ للقرآن ـ له عقلٌ وحِسٌّ ـ يستيقن أنّه ليس كلام بشر، وأنّه متميز عن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم؛ الذي يتمثّل في الحديث النبوي، وإن كان في ذروة البلاغة البشرية، وإنّ وجودَ آية قرآنية ضمن حديث نبوي، يجعل لها نوراً خاصاً يحسّ به مَنْ يقرؤها أو يسمعها، ويشعر أنّها ليست من جنس ما قبلها وما بعدها[1].

ومن روائع ما قال الإمام ابن القيم عن «الخطاب القرآني» قوله في كتابه «التبيان في أقسام القرآن»: تأمّل في خطاب القرآن تجد ملكاً له الملك كله، وله الحَمْدُ كله، أزمّةُ الأمور كلّها بيده، ومصدرُها منه، ومورِدُها إليه، مستوياً على العرش، لا تخفى عليه خافيةٌ من أقطار مملكته، عالماً بما في نفوس عبيده، مطّلعاً على أسرارهم وعلانيتهم، منفرداً بتدبير المملكة، يسمع ويرى، يعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويقدر ويقضي ويدبر، الأمور نازلة من

---

[1] كيف نتعامل مع القرآن الكريم؟ ، د. يوسف القرضاوي ص (21).

عنده دقيقها وجليلها، وصاعدة إليه، لا تتحرك ذرةٌ إلا بإذنه، ولا تسقط ورقةٌ إلاّ بعلمه، فتأمل كيف تجده يثني على نفسه، ويمجّد نفسه، ويحمد نفسه، وينصحُ عباده، ويدلّهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم، ويرغّبهم فيه، ويحذّرهم ممّا فيه هلاكُهم، ويتعرّف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبّب إليهم بنعمه والائه، يذكرهم بنعمه عليهم، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذّرهم من نقمه، ويذكرهم بما أعدّ لهم من الكرامة إن أطاعوه، وما أعدّ لهم من العقوبةِ إن عصوه، ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبةُ هؤلاء وهؤلاء، ويثني على أوليائه لصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذمّ أعداءه بسيّئ أعمالهم، وقبيحِ صفاتهم، ويضرب الأمثال، وينوع الأدلة والبراهين، ويجيبُ على شبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويقول الحق ويهدي السبيل، ويدعو إلى دار السلام، ويذكر أوصافهم وحسنها ونعيمها، ويحذّر من دار البوار، ويذكر عذابها وقبحها والامها، ويذكّر عباده بفقرهم إليه، وشدّة حاجتهم إليه من كل وجه، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكرهم بغناه عنهم وعن جميع الموجودات، وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه[1].

ثانياً ـ القرآن الكريم كتاب محفوظ:

ومن خصائص القرآن أنّه كتابٌ محفوظ، تولّى الله تعالى حفظه بنفسِه، ولم يكل حفظه إلى أحدٍ، كما فعل مع الكتب المقدسة الآخرى[2].

وقد نوّه الله سبحانه بعظمة القرآن بذكر حفظه قبل نزوله في آيات، منها:

---

[1] المصدر نفسه د.يوسف القرضاوي ص (21)، نقلاً عن التبيان في أقسام القران، لابن قيم الجوزية.

[2] كيف نتعامل مع القران؟ ص(22).

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ۝ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۝ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۝ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: 11. 16].

وأمّا حفظ الله تعالى للقرآن أثناء نزوله؛ فيدل عليه قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: 105].

وأمّا حفظ الله تعالى للقرآن بعد نزوله؛ فيدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: 9].

والصيغةُ تدلُّ على التأكيد من عِدّة أوجهٍ يعرفها دارسو العربية، منها: اسمية الجملة، وتأكيدها بحرف إن، ودخول اللام المؤكدة على الخبر (لحافظون)[1] ولحفظ الله إياه فقد بقي كما هو: طودا أشم، عزيزا لا يقتحم حِماه، وكل محاولة لتغيير حرف منه مقضيٌّ عليها بالفشل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: 41–42].

وقد هيأ الله تبارك وتعالى للقرآن العظيم ظروفاً تختلِفُ عن الكتب السابقة فحفظه دونها، ومن ذلك:

1. هيّأ أمة قوية في ذاكرتها وحافظتها، ذلك أنَّ العربَ الأوائل في جاهليتهم كانوا متمكنين من ذلك، حيث يَرْوُون ألوفاً من أبيات الشعر من غير تدوين، إنما يعتمدون في ذلك على الحفظ.

2. هيّأ للقرآن العظيم سهولةَ الحفظِ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر: 17].

---

[1] المصدر نفسه (24).

3. هيّأ له أمة مستقرة ممكنة في الحفظ والفهم، والأمانة، فكان الحفاظ يحفظونه على يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يُتقِنُوا الحفظ، ثم يُدوّنونه بعد ذلك، ويقف عليهم بنفسه في مراجعة ذلك.

4. هيّأ له مراجعة النبيّ صلى الله عليه وسلم له في الملأ الأعلى، حيث كان يحفظُ ما يوحي إليه، ثم يُراجعه على جبريل عليه السلام مرةً كل سنة، وفي السنة الأخيرة من حياته المباركة راجع جبريلُ القرآن كله على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين.

5. بعد الفراغ من تدوينه لم يَعُدْ هناك مجالٌ لعبثِ عابثٍ، وظلَّ الحفّاظُ المتقنون يُراجعون كلَّ نسخةٍ تكتب من المصحف مراجعةً فاحصةً، ولما أصبح للمصحف مطابع خاصة، كُونت لجان متخصصة ومتأهلة من كبار حُفاظ العالم الإسلامي، تُراجع وتُدقق كلّ حرف منه قبل أن تأذن بطبعه.

وبهذه الوسائل تحقّق للقرآن العظيم ذلك الحفظُ الذي قدّره الله له منذ الأزل، وهو اللوح المحفوظ، وأنجز وعده الصادق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: 9][1].

وفي سبك الجملتين من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة، وعلى فخامة شأن التنزيل ما لا يخفى[2].

ثالثاً ـ القرآن الكريم كتاب معجز:

ومن خصائص القرآن الكريم: الإعجازُ، فهو المعجزةُ الكبرى لمحمّد صلى الله عليه وسلم؛ التي لم يتحدّ العربَ بغيرها، برغم ما ظهر على يديه من معجزات لا

---

(1) عظمة القرآن الكريم ص (109).

(2) المصدر نفسه ص (107).

تحصى[1].

1 . تعريف المعجزة:

أمرٌ خارقٌ للعادة، مقرونٌ بالتحدّي، سالمٌ من المعارضة، يظهِرُه اللهُ على يد رسله[2].

2. شروط المعجزة:

ومن خلال التعريف السابق للمعجزة نستطيعُ أن نتلمس شروطها:

أ . أن تكون من الأمور الخارقة للعادة: مثل عدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وعدم إغراق الماء لموسى عليه السلام وقومه، وعدم سيلانه عليهم، ومثل القرآن الكريم.

ب . أن يكون الخارقُ من صنع الله وإنجازه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ **[غافر: 78]**.

ج . سلامتها من المعارضة.

د . أن تقع على مقتضى قول من يدّعيها.

هـ التحدي بها.

و . أن يستشهد بها مدّعي الرسالة على الله عز وجل.

ز . تأخر الأمر المعجز عن دعوى الرسالة[3].

---

[1] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (32).

[2] الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (3/4)، مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ص (14).

[3] مباحث في إعجاز القرآن ص (18).

وقد توافرت هذه الشروط في إعجاز القرآن.

3. القرآن الكريم هو المعجزة العظمى:

لما زعم المشركون أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم هو الذي ألّف القرآن، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لاَ يُؤْمِنُونَ ۝ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ۝ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: 33 ـ 35].

ثم تحداهم بعشر سور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: 13 ـ 14].

ثم تحدّاهم بسورة واحدة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 23 ـ 24].

وقال تعالى أيضاً: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: 38].

فعجزَ جميعُ الخلق أن يعارضوا ما جاء به، ثم سجَّل على الخلق جميعاً العجزَ إلى يوم القيامة بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقرآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «**ما من الأنبياءِ نبيٌّ إلا أُعطِيَ من الآيات ما مِثلُه امنَ عليه البَشَرُ، وإنّما كان الذي أوتيتُه وحياً**

أوحاه اللهُ إليَّ، فأرجو أَنْ أكونَ أكثرَهم تابعاً يوم القيامة»[1].

إنَّ معجزاتِ الأنبياء تتماثلُ من حيث إنّها حسية ومخصوصة بزمنها، أو بمن حضرها، أو منقرضة بانقراض من شاهدها.

أمّا معجزةُ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فهي القرآن الكريمُ، الذي لم يعطَ أحدٌ مثله، وهو أفيدُها وأدومُها، لاشتماله على الدعوة والحجة، واستمرار تحديه في أسلوبه وبلاغته ومعانيه وأخباره، وعجز الجنُّ والإنس عَنْ أن يأتوا بسورةٍ مثله مجتمعين أو متفرّقين في جميع الأعصار، مع اعتناء معارضيه بمعارضته فلم ولن يقدروا، فعمَّ نفعه مَنْ حضرَ ومَنْ غاب، ومن وُجِدَ ومن سيوجَدُ إلى اخر الدهر، ولذلك فإنَّ محمّداً صلى الله عليه وسلم أكثرُ الأنبياء أتباعاً[2].

هذا شرحٌ للحديث على وجه الإجمال، وأمّا أسباب اختصاص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عن سائر الأنبياء بهذه المعجزة الظاهرة، فيبيّنها محمود الألوسي فيقول: لثلاثة أسباب صار بها من أخصّ إعجازه، وأظهر آياته:

1. إنّ معجِزَ كل رسولٍ موافِقٌ للأغلب من أحوال عصره، والشائع المنتشر من ناس دهره، فلمّا بُعِثَ نبينا محمّد صلى الله عليه وسلم في عصر الفصاحةِ والبلاغة خُصَّ بالقرآن في إيجازه وإعجازه، بما عَجَزَ عنه الفصحاءُ، وأذعن له البلغاءُ، وتبلّد فيه الشعراء، ليكونَ العجزُ عنه أقهر، والتقصيرُ فيه أظهر، فصارت معجزاته ـ وإن اختلفت ـ متشاكلة المعاني، مختلفة العلل.

2. إنّ المعجزةَ في كلِّ يوم بحسب أفهامهم، وعلى قدر عقولهم وأذهانهم.. والعربُ

---

[1] رواه الشيخان، اللؤلؤ والمرجان ص (93).

[2] رسالة خاتم النبيين محمد، د. ثامر بن ناصر ص (155).

أصحُّ الناس أفهاماً، وأحدّهم أذهاناً، فخصّوا من معجزات القرآن بما تجول فيه أفهامهم، وتصل إليه أذهانهم[1].

3. وهذه المعجزةُ جمعت بين الدليل لما فيه من الإعجاز وغيره من وجوه الدلالة، وبين المدلول بما فيه من بيان الإيمان وأدلته، وبيان الأحكام الشرعية والقصص والأمثال، والوعد والوعيد، وغير ذلك من علومه التي لا تَنْحَصِرُ، ثم جعل مع حفظه وتلاوته من أفضل الأعمال التي يُتقرّب بها إلى الله تعالى .. ولهذا توفّرت الدواعي على حفظه على مرّ الدهور والأعصار، ففي كل قرن ترى مِنْ حفظتِه ما يفوتُ العدَّ والإحصاء، ويستنفد نجوم السماء، ومثل ذلك لم يتفق لغيره من الكتب الإلهية المقدسة[2].

وفي قوله صلى الله عليه وسلم: «فأرجو أنْ أكونَ أكثرَهم تابعاً» آيةٌ من آيات نبوته، كما قال النووي: فإنّه أخبر صلى الله عليه وسلم بهذا في زمن قلة من المسلمين، ثم منَّ الله تعالى وفتح على المسلمين البلاد، وبارك فيهم، حتى انتهى الأمر، واتسع الإسلام في المسلمين إلى هذه الغاية المعروفة، ولله الحمدُ على هذه النعمة وسائر نعمه التي لا تحصى[3].

توضيح هذا الإعجاز:

ـ بيان حال محمد صلى الله عليه وسلم:

إن وضعه صلى الله عليه وسلم من الناحية العلمية معروفٌ عند المشركين، فهو:

أ ـ بشر مثلهم، وليس من جنس اخر.

---

[1] رسالة خاتم النبيين محمد، د. ثامر بن ناصر ص (155).
[2] المصدر نفسه ص (155).
[3] شرح مسلم، للنزري (188/2).

ب ـ أميٌّ، لا يقرأ ولا يكتب.

ج ـ تجاوزَ الأربعين، ولم يكن معروفاً قبلَ ذلك بالخطابة، ولا بالشعر، ولا بالرئاسة في مجالِ الكلام، بل كان يعملُ بمجالٍ بعيدٍ عن الكلمة، وهو التجارة، ولم يُحفظ عنه قبلَ البعثةِ أثرٌ يدل على إنشائه لقصيدة، أو حتى خطبة نثرية.

د ـ أنّه صلى الله عليه وسلم أتى بكتابٍ نسبه إلى الله، أجمعَ العربُ على فصاحته وبلاغته وحسن نظمه، واشتماله على علوم شتى، وآداب تترى.

- **وقوع التحدي بهذا الكتاب:**

أ ـ إن هذا التحدي قائم في وجه كلِّ معارض للرسول صلى الله عليه وسلم.

ب ـ التحدي بأن يأتوا بسورةٍ من مثله.

ج ـ وللمعارض أن يستعينَ بمن شاء من أعوانٍ وشهداءَ سواء كانوا من الجن، أو من الإنس، أو من الجن والإنس مجتمعين معاً.

- **وجود دواعي التحدي:**

أ ـ العرب أهل فصاحةٍ وبلاغةٍ وبيانٍ.

ب ـ إن معارضي الرسول صلى الله عليه وسلم أهلُ عداوةٍ عظيمةٍ له.

ج ـ وهم حريصون أشدَّ الحرص على إبطال دعوته بأيِّ وسيلة، ومن أيِّ طريق.

- **نتيجةُ التحدّي صدقُ نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم،** لأنهم: عجزوا غاية العجز عن الإتيانِ بسورة من مثله، ولو كان عندهم أدنى تأهل وتمكن لفعلوا، ولكنّهم لم يقدروا، إذ كلامُ الفقير الناقص الجاهل لا يكون أبداً مثل كلام الذي له الكمالُ المطلق، والغنى المطلق، والقدرة المطلقة، والعلم المطلق، فكما أنّ الله ليسَ كمثله شيءٌ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فبالضرورة ليس لكلامه مثيلٌ ولا شبيهٌ،

ولا يشتبه كلامه بكلام المخلوقين إلا على من اختلّ عقله، وغابَ فؤاده، وهذا برهانٌ ساطعٌ ودليل قاطعٌ على صحة ما جاء به صلى الله عليه وسلم، ويبقى على مَنْ عجزَ عن هذا التحدي قراران لا مفرَّ من اتخاذ أحدهما:

1. إمّا أن يؤمن بأنّ محمّداً صلى الله عليه وسلم رسولٌ من الله، وأنَّ القرآن حقٌّ كلامُ اللهِ، وهذا هو مقتضى العقل، وسبيلُ الفطرة السليمة، وطريقُ الناجين في الدنيا والآخرة.

2. وإمّا أن يعانِدَ، وهو يعلمُ من نفسه أنَّ القرآن حقٌّ، وهذا سبيلُ الجاحدين، ومقتضى الجهل والعناد، وأصحاب النفوس المريضة؛ والقلوب السقيمة؛ وطريق الخاسرين في الدنيا والآخرة.

وقد كان هذا التحدي سبباً في إسلام الكثيرين؛ لأنَّ القرآن بهذه الاستثارة للعقول والألباب والقلوب يدعو للتفكر في القرآن بشكل أكبر، ويجعل الإنسان الشاك يتدبَّر أكثر وأكثر، حتى يصلَ إلى النهاية المحمودة إذا كان ممن يبحث عن الحق متجرّداً من الهوى[1].

4. وجوه إعجاز القرآن:

قد كتب العلماءُ البلغاءُ قديماً وحديثاً حول «إعجاز القرآن» ووجوهِ هذا الإعجاز، وألّفت في ذلك كتب شتى، فمنهم من عُنِيَ بإخباره بالغيوب، ومنهم من عُنِيَ بالنظم والعبارة والأسلوب، أو ما يسمى «الإعجاز البياني»، وقد كتب فيه القدماء مثل الباقلاّني، والرُّماني، والخطّابي، والجُرجاني، والفخر الرّازي، وغيرهم، وكتب فيه المحدثون، مثل: مصطفى صادق الرافعي، وسيد قطب في كتابه «التصوير الفني في

---

[1] رسالة خاتم النبيين محمد، د. ثامر بن ناصر ص (155).

القرآن» ومثله «مشاهد القيامة في القرآن» وطبقه في تفسيره «في ظلال القرآن»، وكتاب الدكتور بدوي طبانة «بلاغة القرآن»، والدكتور محمد عبد الله دراز «النبأ العظيم»، ومنهم من عُنِيَ بالإعجاز التشريعي أو الإصلاحي الذي جاء به القرآن، كما فعل الشيخ محمد رشيد رضا في كتابه «الوحي المحمدي» حيث جدّد التحدي بالقرآن، وبيّن المقاصدَ التي جاء القرآن ليحققها في الحياة، وأنّه يستحيلُ أن يأتيَ بها رجلٌ أمي في أمة أمية، وقد فاقت كل ما جاء به الفلاسفة والمصلحون، ومثل ذلك: المقالات التي كتبها العلامة محمد أبو زهرة في مجلة «المسلمون» الشهرية المصرية، تحت عنوان: «شريعةُ القرآن دليلٌ على أنّه من الله»[1].

وفي عصرنا ظهر نوعٌ جديدٌ أطلق عليه الإعجاز العلمي، ويقصد به: ما تضمنه القرآن من إشارات ودلالات على حقائق علمية كانت مجهولةً للناس في وقت نزول القرآن، وتعتبر سابقة لعصرها، ولا تتصوّر أن تصدرَ من رسول أمي في بيئة أمية، وفي عالَمٍ لا يعرف عن هذه الحقائق شيئاً[2]، واشتهر في هذا الميدان كل من الشيخ عبد المجيد الزنداني والدكتور زغلول راغب محمد النجار.

وقد لخّص الدكتور زغلول النجار جوانبَ الإعجاز القرآني فقال: وتتعدّد جوانبُ الإعجاز القرآني: بمعنى عجز البشر عن الإتيان بشيء مثله بتعدد الزوايا؛ التي ينظر منها إنسان محايد إلى كتاب الله، ومن هذه الجوانب:

. الإعجاز اللغوي، الأدبي، البياني، البلاغي، النظمي، اللفظي، والدلالي.

. الإعجاز العقدي «الاعتقادي».

---

[1] ثم أصدر رحمه الله قبل وفاته كتابا بعنوان "المعجزة الكبرى للقرآن".

[2] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (34).

. الإعجاز التعبدي «العبادي».

. الإعجاز الأخلاقي.

. الإعجاز التشريعي.

. الإعجاز التاريخي.

. الإعجاز التربوي.

. الإعجاز النفسي.

. الإعجاز الاقتصادي.

. الإعجاز الإداري.

. الإعجاز التنبؤي.

. الإعجاز العلمي.

. إعجاز التحدي للإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بشيء من مثله في أسلوبه، أو مضمونه أو محتواه، دون أن يتمكن أحد من ذلك[1].

رابعاً ـ القرآن كتابٌ مبيَّنٌ وميسَّرٌ:

ومن خصائص القرآن: أنّه «كتابٌ مبيَّنٌ» ميسَّرُ الفهم والذكر، ومع السمو البلاغي والبياني للقرآن الكريم، فإنه سلسلٌ كالماء العذب الزُّلاَل، ميسَّرٌ لكل من يريدُ أن يعقل ويذكر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ **[القمر: 17]**.

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا **[مريم: 97]**.

لقد نوّه الله تعالى بشأن القرآن العظيم، وأخبر أنّه يسّره وسهله ليتذكّر الخلقُ ما يحتاجونه من التذكير، ممّا هو هدًى لهم، وإرشادٌ لمصالحهم الشرعية.

---

(1) من آيات الإعجاز العلمي، السماء في القرآن ص (12، 13).

وسبب تيسيره: أنّه نزل بأفصحِ اللغاتِ وأبينها، وجاءَ على لسانِ أفضل الرسل صلى الله عليه وسلم.

ومعنى تيسيره: يرجعُ إلى تيسير ما يُرادُ منه، وهو فهم السامع المعانيَ التي عناها المتكلّم به، من دون كلفة على هذا السامع ولا إغلاق[1].

وهذا الكتاب مبينٌ لأنَّ الله أنزله لتُعْقَلَ معانيه، وتُفْقَهَ أحكامُه، وتدرَك أسرارُه، وتتدبر آياته، فهو مبين لا غامض ولا مغلق ولا ملغز ولا معقد. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قرآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: 2]. قال تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قرآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: 3].

وقد وصف الله هذا القرآن بأنه: ﴿نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ [المائدة: 15]. وقال تعالى: ﴿هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: 185]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل: 64]. إلى غير ذلك من الآيات التي استفاضت في هذا المعنى[2].

خامساً ـ القرآن الكريم كتاب هداية:

ومن خصائص القرآن الكريم أنّه كتابُ هدايةٍ للعالمين، أنزله الله ليُخْرِجَ الناسَ من الظلمات إلى النور.

1 ـ قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: 257].

---

[1] عظمة القرآن الكريم ص (103).

[2] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (40).

2 . وقال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1].

وقد تحقق هذا حينما اهتدى العربُ بهداه، فخرجوا من الظلمات إلى النور، ومن التخلّف إلى قمة الحضارة والمدنية، ومن الذل والتبعية إلى السيادة والعالمية، ثم أوصلوا هدايته إلى العالم مِنْ حولهم بأمانةٍ وتضحيةٍ وإخلاصٍ، فإذا بالعالم يُكسَى بحلّة العزة والرِّفعة والبهاءِ والجمال، وأثبتَ واقعُ المسلمينَ عبرَ الزمن أنهم أصبحوا بتمسّكهم بالقرآن أرقى الأمم، وبتخلّفهم عنه، وأخذهم بما عند الأمم من ضلال أخس الأمم[1].

3 . وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 9].

يؤكّد الله أنّ هذا القرآن أقومُ من أيِّ هدايةٍ يراها البشر، ولم يستطع أيُّ باحث موضوعي أن يجدَ خللاً في تشريع القرآن، أو أن يجدَ في التشريع الوضعي ما يصل إلى تشريع القرآن فضلاً عن أن يتفوّق عليه، وهذا يوجِبُ على العاقل استدامة القرآن، وملازمة العمل به.

إنّ ما في القرآن من هداية وتشريع صالحٌ لكلّ زمان ومكان لا تَبْطُلُ قيمه، بل لا يَصْلُحُ إلا هو، مهما اختلفت العصور، وتنوعت الحضارات، إنّه تسامى على كل قانون عرفته الأممُ قديماً وحديثاً، حتى أقرت المجامع القانونية الدولية الفقه الإسلامي مصدراً أساسياً تُقْتَبَسُ منه القوانين، وإنّ القوانين الحديثة في تطورها تتسامى لتقترب

[1] إعجاز القران الكريم، د. محمد صادق درويش ص (46).

من تشريع القرآن[1].

وكيف لا يكونُ كذلك، وهو تشريعٌ ربانيٌّ شاملٌ لجميع النواحي، وكافلٌ لإحقاق الحق، وصيانة مصالح الناس في جميع شؤونهم: المالية والاجتماعية والأسرية والدولية، في حين أنه لم يوجدْ إلى الان تشريع شامل أو عادل مع ما مرّ على الإنسانية من تجارب وخبراتٍ، حتى إن الله تحدّى العالمَ أن يأتوا بمثل القرآن، والمثلية تشمل جميعَ جوانب القرآن سواء الألفاظ والمعاني، وإذا عجزوا عما هو من جنس ما يستطيعونه، ويتفوقون فيه، وهو نظم القرآن، فهم أشدُّ عجزاً عن تشريع القرآن وهدايته، لما يحتاجه إلى علم محيط بكل شيء، وليس هذا إلا الله عز وجل[2].

4 . وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ **[المائدة: 50]**.

استنكر الله تعالى على من أعرض عن تشريعه، ولجأ إلى تشريع الناس، وما هذا إلا لأنه لا تشريع أحسن منه، ولا هداية مثله، فكيف يترك إلى ما دونه[3]؟

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾، ينكر الله تعالى على مَنْ خرجَ عن حكم الله المشتمل على كل خير، الناهي عن كلِّ شرّ، وعدل إلى ما سواه من الاراء والأهواء والاصطلاحات؛ التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهلُ الجاهلية يحكمون به الضلالات والجهالات بما يضعونها بارائهم وأهوائهم. ﴿وَمَنْ﴾ أي: ومَنْ أعدلُ من الله في ﴿أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾، لمن عقل عن الله شرعه، وامن به وأيقن، وعلم أنَّ الله أحكمُ الحاكمين، وأرحمُ بخلقه من الوالدة

[1] إعجاز القران الكريم، د. محمد صادق درويش ص (47).
[2] المصدر نفسه ص (48).
[3] إعجاز القران الكريم، د. محمد صادق درويش ص (48).

بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء[1].

5 . قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة: 3]. يحثّنا الله تعالى في هذه الاية على التمسّك بهديه من خلال مدحه دينه بالكمال والتمام، والنفوس تتطلّع إلى ما كان كذلك[2].

هذه أكبرُ نعم الله تعالى عن هذه الأمة، حيث أكملَ تعالى لهم دينَهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبيّ غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلالَ إلاّ ما أحله، ولا حرام إلاّ ما حرّمه، ولا دينَ إلاّ ما شرعه، وكلّ شيءٍ أخبرَ به فهو حقٌّ وصدقٌ لا كذب فيه ولا خلف... فلمّا أكملَ لهم الدينَ، تمّت عليهم النعمة، ولهذا قال تعالى: أي: فأرضوه أنتم ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾، فإنّه الدين الذي أحبه الله ورضيه، وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرفَ كتبه[3].

وكمالُ دينه سبحانه وتمامه بكمال مصدره الأصل القرآن الكريم؛ ولهذا لا يملك من يتلو القرآن، ويتدبر معانيه إلا أن يخرّ ساجداً لعظمة منزله. قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا﴾ ﴿هَذَا الْقرآن عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر: 21].

---

[1] المصدر نفسه ص (48)، تفسير ابن كثير (68/2).

[2] تفسير ابن كثير (13/2).

[3] إعجاز القران الكريم، د. محمد صادق درويش ص (49).

سادساً. القرآن الكريم كتاب الإنسانية كلها:

ومن خصائص القرآن الكريم أنّه كتابُ الإنسانيةِ كلِّها؛ الذي خاطب الله تعالى به جميعَ البشر إلى يوم القيامة، فلم يُقيّد بزمان، ولا بمكان، ولا جنس ولا طبقة، بل هو موجّهٌ إلى الثقلين، خاطبهم جميعاً بما يسعدهم في الدنيا والآخرة من العقائد الصحيحة، والعبادات الحكيمة، والأحكام الرفيعة، والأخلاق الفاضلة؛ التي تستقيم بها حياتهم.

ولقد تضافرت نصوصُ الكتاب والسنة وإجماعُ الأمة على عالمية القرآن[1].

ومن الآيات التي صرحت بعالمية القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: 1]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 107]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقرآن مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴾ [الإسراء: 89]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقرآن مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: 27]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [الزمر: 41].

فالقرآن لا يخاطِبُ صنفاً واحداً من البشر له تجاه عقلي أو نفسي معين، مغفلاً عن عداه من الأصناف ذوي الاتجاهات المتعددة، كلا، إنه يخاطِبُ كل الأصناف، ويشبعُ كلَّ الاتجاهات الإنسانية السوية، في توازنٍ لا يقدر عليه إلا منزل القرآن، وخالق الإنسان[2].

---

[1] عظمة القرآن الكريم ص (110).

[2] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (60).





1 . إن طالب **الحقيقة العقلية** يجدُ في القرآن ما يرضِي منطقه، ويأخذ بلبه إذا سمعه يصيح بالعقل أن ينظر ويفكر في ملكوتِ السماواتِ والأرض، وما خلق الله من شيء.

- **وأن يعتمد على البرهان وحدَه في العقليات. قال تعالى:** ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ **[البقرة:111]**.
- **وعلى المشاهدة والتجربة في الحسيات،** قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ **[الأعراف: 185]**.
- **وعلى الصدق وتوثيق الرواية في النقليات،** قال تعالى: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ **[الأحقاف 4]**.

ويكفي أنَّ مشتقات العقل مثل ﴿يَعْقِلُونَ و تَعْقِلُونَ ﴾، ذكرت في القرآن ثمانياً وخمسين وذكرت مشتقات الفكر سبع عشرة مرة، وذكرت كلمة﴿الأَلْبَابِ﴾، أي: العقول ستّ عشرةَ وهذا غير الآيات التي اشتملت على كلمات ومشتقات أخرَ مثل: «النظر»، و«الاعتبار» و«التدبر» و«الحجة» و«البرهان» و«النهى» و«الحكمة» و«العلم» ونحو ذلك مما يبحث عنه طلاّب الحقائق العقلية، فلا يجدونه في كتاب ديني غير القرآن.

2. والباحث عن **الحقيقة الروحية** يجدُ في القرآن ما يرضي ذوقه، ويغذي وجدانه، ويشبعُ نهمه وتطلعاته في افاق الروح، في مثل قصة موسى والعبد الصالح، الذي قال الله فيه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ **[الكهف: 65]**.

يجد الباحثُ عن «الإيمان» في الخطاب القرآني ما ينشئ الإيمان البصيرَ بالله

ورسالاته ولقائه وجزائه، ويطارِدُ الجحود والشك والنفاق، ويقيم الأدلة الناصعة على وجود الله تعالى، وعلى وحدانيته، وعظيم قدرته، وبالغ حكمته، وواسعِ رحمته، وعلى بعثه رسله ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165]. وعلى عدالة الجزاء في الآخرة: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: 31].

ويجلي له القرآن مصيرَ المؤمنين نجاةً وحياةً طيبةً في الدنيا، وفلاحاً في الآخرة، ومصيرَ المكذّبين: شقاء في الدنيا، وعذاباً في العقبى.

الإيمان في القرآن يبني ولا يهدم، ويجمع ولا يفرق، ويسامح ولا يتعصب، فهو يوجب الإيمانَ بكلِّ كتاب أنزل، وبكلِّ نبي أرسل، قال تعالى: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: 285].

3. والحريص على القيم الأخلاقية يجدُ في القرآن ضالته وطلبته، وإذا كان موضوع الأخلاق هو «الخير» فالقرآن قد دلَّ على «الخير» كما هدى إلى «الحق» وقد جعلَ فعلَ الخيرِ إحدى شعب ثلاثة لمهمة المجتمع المسلم، قال تعالى: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج 77].

ولكنّه لم يكتفِ من المسلم بفعل الخير، بل طلبَ منه أن يدعو إلى الخير، ويدلّ عليه، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: 104].

4. وعاشق القيم الجمالية يجد في القرآن ما ينمّي حاسته الجمالية، ويغذّي شعورَه الفنّي، وذلك بما لفتَ إليه القرآن الأنظارَ من الاستمتاع بجمال الطبيعة في السماء، ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الحجر: 16]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك: 5]. وجمال الطبيعة في الأرض ابتداء من جمال النبات، قال تعالى:

﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: 5]. وقال تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[النمل: 60]. وجمال الحيوانات ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[النحل: 6]. وجمال الإنسان ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[التغابن: 3]. وجمال المخلوقات كلّها ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[النمل: 88].

ووراء ذلك كلّه ما احتواه أسلوب القرآن ذاته من جمال بياني معجز في نظمه ومعناه، وفي شكله ومضمونه، وصفه المشركون أنفسهم فقالوا: إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنَّ أسفله لمغدِقٌ، وإنّه يعلو ولا يعلى عليه[1].

سابعاً ـ القرآن الكريم كتاب الزمن كله:

من خصائص القرآن: أنّه كتابُ الزّمن كله، وكتاب الإنسانية كلّها، وكتاب الدِّين كله، وكتاب الحقيقة كلها، ومعنى أنَّ القرآن كتابُ الزمن كله: أنّه كتابُ الخلود، ليس كتاب عصر معين، أو كتاب جيل أو أجيال، ثم ينتهي أمده، بل القرآن هو الكتاب الباقي إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها، وهو الكتاب الصالح والمصلح لكلِّ زمان ومكان[2]، مهما اختلفتِ العصورُ، وتنوّعتِ الحضارات، لا تبطل قيمته، بل لا يصلح إلا هو.

إنّ تعاليمَ القرآن موجهة للعالم بأسره، فهي للناس كافة في شتى أرجاء العالم، بغضّ النظر عن أصلهم، أنزلت إليهم لتدخل السرور والبهجة إلى قلوبهم، وتطهر نفوسهم، وتهذب أخلاقهم، وتوجّه مجتمعهم، وتستبدل سطوة القوي بالعدل والأخوة. وقد أكدّ الله عز وجل أن في القرآن حلولاً لجميع قضايا البشر ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ

---

[1] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (62).

[2] المصدر نفسه ص (56).

تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: 89]. فالقرآن له أعلى حظوة لدى المسلمين، وهو ليس مجرد كتاب صلوات، أو أدعية نبوية، أو غذاء للروح أو تسابيح روحانية فحسب، بل إنّه أيضاً القانون السياسي، وكنز العلوم، ومراة الأجيال، إنّه سلوى الحاضر، وأمل المستقبل[1].

ثامناً ـ القرآن الكريم نزل بأرقى اللغات وأجمعها:

لقد اختار الله عزّ وجلّ اللغة العربية لينزل بها اخر كتبه، وهذا الاختيارُ من الحق عزّ وجلّ لهذه اللغة العظيمة إنما يعود إلى ما تمتاز به من مرونة، واتساع، وقدرة على الاشتقاق، والنحت، والتصريف، وغنًى في المفردات والصيّغ والأوزان[2].

فكل دارس للغات العالم يُصرُّ على أنَّ اللغة العربية هي أرقى اللغات، وأجمعها للمعاني الكثيرة تحت الألفاظ القليلة، وأحسنها تهذيباً، وأكثرها إيضاحاً وبياناً للمطلوب، ولذلك أشاد القرآن الكريم بها في عِدّة آيات، منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قرآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: 3]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قرآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: 2].

لقد أراد الله تعالى أن يكونَ القرآن كتاباً مخاطباً به كل الأمم في جميع العصور؛ لذلك أنزله بلغةٍ هي أفصحُ كلام بين لغات البشر، وهي اللغة العربية، لأسبابٍ يلوح لي منها: أنَّ تلك اللغة أوفر اللغات مادة، وأقلها حروفاً، وأفصحها لهجة، وأكثرها تصرّفاً في الدلالة على أغراض المتكلّم، وأوفرها ألفاظاً، وجعله جامعاً لأكثر ما يمكن أن تتحمله اللغة العربية في نظم تراكيبها من المعاني، في أقل ما يسمح به نظم تلك

---

[1] دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، د. محمد عبد الله دراز ص (18).

[2] لغة القرآن مكانتها والأخطار التي تهددها، إبراهيم محمد أبو عباء ص (11، 12).

اللغة، فكان قوام أساليبه جارياً على أسلوب الإيجاز، فلذلك كثر فيه ما لم يكثر مثله في كلام بلغاء العرب[1].

تاسعاً ـ القرآن الكريم مصدّقٌ لكتب الله السابقة ومُهيمنٌ عليها:

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾[المائدة: 48]. ومعنى قوله: أنّ القرآن العظيم رقيبٌ على الكتب السابقة؛ لأنه يشهد بصحتها﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾، ويقرر أصولها، وما يتأبّد من فروعها، ويُبيّنُ أحكامها المنسوخة بتعين وقت انتهاء مشروعيتها.

أو على معنى أنّه أمينٌ عليها، فما أخبر عن صدقه مما ورد فيها صُدّق، وما أخبر بزيفه فهو باطلٌ.

أو على معنى أنه الحافظ لها، فهو الذي حفظ ما جاء فيها من التوحيد، وكليات الدين إلى يوم القيامة.

أو على معنى أنه دالّ على صدقها، أي: هو دليل على أنها من عند الله، لأنه جاء كما نعتته هذه الكتب[2].

وهذه الأقوال كلّها متقاربة المعنى، فإنّ اسمَ «المهيمن» يتضمّن هذا كله، فهو أمينٌ وشاهدٌ، وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم؛ الذي أنزله اخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأحكمها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره؛ فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة.

---

[1] عظمة القرآن الكريم ص (98).

[2] تفسير الطبري (6/266-267).

فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: 9].

1 . علاقة الهيمنة بالتصديق:

ولاشك أنّ مفهوم الهيمنة أتمُّ وأشمل من مفهوم التصديق؛ لأنّ الهيمنة لا تقتصر على مجرّد الشهادة لهذه الكتب بصحة إنزال أصولها، وتقرير أصولها وشرائعها، بل تتعدّى ذلك، فتُبين ما اعتراها من نسخ أو تحريف، وما عرض لها من زيف وفساد، فالقرآن بذلك مهيمن على المعاني الصحيحة التي كانت في تلك الكتب، وشاهد بكونها من عند الله، وبذلك تتلاقى الهيمنة مع التصديق، ولكنّه كذلك يشهد على هذه الكتب بما أصابها من تحريف، وتسرّب إليها من باطل، وبه تنفرد الهيمنةُ عن التصديق، فمفهومُها إذاً أتمّ، وأشمل من مفهوم التصديق[1].

2 . مظاهر هيمنة القرآن على الكتب السابقة:

لهيمنة القرآن العظيم على كتب الله المنزلة قبله ـ فوق ما تقدّم من تصديقه لها ـ مظاهر متعددة، من أهمها ما يلي:

أ . إخباره بتحريف الكتب السابقة وتبديلها:

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيدِيهِمْ وَوَيلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[البقرة: 79].

ب . بيان المسائل الكبرى التي خالفوا فيها الحق:

ففي جانب العقائد على سبيل المثال نفى القرآن العظيم ما صرّحت به الأناجيل

---

[1] دراسات إسلامية في العلاقات الاجتماعية والدولية، د. محمد عبد الله دراز ص (18).

المحرفة من قتل عيسى عليه السلام، وصلبه، قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: 157]. وحكم على النصارى بالكفر لقولهم بالتثليث، وألوهية المسيح، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: 72 ـ 73].

أمّا التوراة المحرّفة فإنها تَنْسِبُ إلى الله تعالى كثيراً من النقائص، والتي جاء القرآن العظيم بدحضها وإبطالها، فلقد أخبر القرآن العظيمُ أنّ اليهود نسبوا إلى الله عزّ وجلّ الولد، كما وصف اليهود الله بالفقر، والبخل، وغل اليد، فبين القرآن الكريم كذبهم، وزورهم، وبهتانهم. قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: 30]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: 181]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[المائدة: 64][1].

ج ـ بين القرآن كثيراً من المسائل التي أخفوها:

فمن ذلك: أنّ الدّارسَ لأسفار العهد القديم يرى أنّها: قد خلت من ذكر اليوم

[1] عظمة القرآن الكريم ص (126) تعالى الله عما يقولون علوا عظيما.

الآخر ونعيمه وجحيمه . وإذا كانت اليهوديةُ في أصلها تقرر البعث، والنشور، والحساب، والجنة والنار، كما يُنبأءُ بذلك القرآن . ذلك يدلُّ على أنّ اليوم الآخر وما فيه وما يتصل به، من المسائل التي أخفاها أهل الكتاب[1]. قال تعالى: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ **[المائدة: 15]**[2].

* * *

[1] عظمة القران الكريم ص (126).

[2] المصدر نفسه ص (126).

الفصل الثالث : مقاصد القرآن الكريم

أولاً . تصحيح العقائد والتصورات

ثانياً . تزكية النفس الإنسانية

ثالثاً . عبادة الله وتقواه

رابعاً . إقامة العدل بين الناس

خامساً . الشورى

سادساً . الحرية

سابعاً . رفع الحرج

ثامناً . تقرير كرامة الإنسان

تاسعاً . تقرير حقوق الإنسان

عاشراً . تكوين الأسرة الصالحة

الحادي عشر . إنصاف المرأة وتحريرها من ظلم الجاهلية

الثاني عشر . بناء الأمة الشهيدة على الناس

الثالث عشر . السماحة

الرابع عشر . الرحمة

الخامس عشر . الوفاء بالعهود والعقود

دعا القرآن الكريم إلى الكثير من المبادئ والمقاصد التي لا تصلحُ الإنسانية بغيرها، والتي مِنْ أهمها:

أولاً . تصحيح العقائد والتصورات:

أ . القرآن العظيم من أوّله إلى اخره دعوةٌ إلى التوحيد، وإنكارٌ للشرك، وبيانٌ لسوء عاقبة المشركين في الدّارين، وقد اعتبر القرآن الشركَ أعظمَ جريمةٍ يقترفُها مخلوق. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48]. وإنّ حقيقة الشرك انحطاطٌ بالإنسان من مرتبة السيادة على الكون . كما أراد الله له . إلى مرتبة العبودية والخضوع للمخلوقات، سواء كانت جماداً، أو نباتاً، أو حيواناً، أو إنساناً، إلى غير ذلك. قال الله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: 30-31].

والدعوة إلى التوحيد هي المبدأ الأوّل المشترك بين رسالات النبيين جميعاً، فكل نبيٍّ نادى قومه أن ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 59]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:36].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 25].

فلا مكان للوسطاء بين الله عزّ وجلّ وبين خلقه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 186].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].

وقد أصلح القرآن هنا ما أفسدته الديانات الوثنية والكتابية المحرّفة من عقيدة

التوحيد، حتى اليهود جعلت الربَّ أشبه بالمخلوقين، فهو يتعب ويندم ويخاف، ويصارعُ إسرائيل، فيصرعه إسرائيلُ، فلا يتمكن من الإفلات منه إلا بوعدٍ منه بمباركة نسله، فأطلق سراحه!!

والنصرانيةُ تأثرت بوثنية روما، وطغت عليها الوثنيةُ حتى امتلأت الكنائسُ بالصور والتماثيل، وأخذت عقيدةُ التثليث والفداء من عقيدة الهنود في «كرشنة»، كل ما فعلوه أنهم حذفوا اسم كرشنة، ووضعوا اسم «يسوع»[1].

ب ـ تصحيح العقيدة في النبوة والرسالة:

وذلك بعدة أساليب:

- **بيان الحاجة إلى النبوة والرسالة:**

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ **[البقرة 213]**. وقال تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ **[النساء: 165]**. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ **[النحل: 64]**.

- **بيان وظائف الرسل في التبشير والإنذار:**

قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ **[النساء: 165]**. فليس الرسل الهةً، ولا أبناءَ الهةٍ، إنّما هم بشرٌ يوحى إليهم ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ **[الكهف: 110]**.

يملكون أن يدعوا إلى توحيد الله، ولكن لا يملكون هدايةَ القلوب، ولا السيطرةَ عليها

---

[1] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (66).

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: 21 . 22].

- **تفنيد الشبهات التي أثارها الناس من قديم في وجه الرسل:**

كقولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: 10]. وقولهم: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ [المؤمنون: 24]. فقد ردّ عليهم القرآن بمثل قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: 11]. ومثل قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً ﴾ [الإسراء: 95][1].

- **بيان عاقبة الذين صدقوا المرسلين وعاقبة الذين كذبوا المرسلين:**

وفي القرآن الكريم ثروة طائلة من قصص الرسل مع أممهم، تنتهي دائماً بهلاك المكذبين، ونجاة المؤمنين. قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً ۝ وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾ [الفرقان: 37 . 39]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 103].

ج . تثبيت عقيدة الإيمان بالآخرة:

ومما عني به القرآن، وكرّره في سوره المكية والمدنية الإيمان بالآخرة، وما فيها من جزاء وحساب وجنة ونار، وقد اتخذ القرآن في تثبيت هذه العقيدة وتصحيحها أساليب شتى؛ منها:

- **إقامة الأدلة على إمكان البعث** ببيان قدرة الله على إعادة الخلق كما

---

[1] المصدر نفسه ص (67).

بدأهم أول مرة. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27].

- التنبيه على خلق الأجرام العظيمة؛ التي يُعْتَبَرُ خَلْقُ الإنسان بجوارها شيئاً هيناً، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: 33].
- بيان حكمة الله تعالى في الجزاء، حتى لا يستوي المحسن والمسيء، والبر والفاجر، في النهاية تكون الحياة عبثاً وباطلاً يتنزه الله تعالى عنه، قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص: 28]. وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: 115]. وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً ﴾ [القيامة: 36].
- إبطال الأوهام التي أشاعها الشرك والمشركون من أنّ الهتهم المزعومة تشفع لهم عند الله يوم القيامة، وكذلك ما زعمه أهلُ الكتاب من شفاعة القديسين وغيرهم، وهذا ما كذّبه القرآن، وأبطله أشد الإبطال، فلا شفاعة إلا بإذن الله، ولا شفاعة إلا لمؤمن موحّدٍ، قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: 18]. وقال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر: 48]. وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255]. ولا ينفع الإنسانَ إلا سعيُه، ولا يحمل وزر غيره ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۝ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم: 38-39]. وقال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 49].




- **بيان ما ينتظر المؤمنين الأبرار في الآخرة من المثوبة والرضوان**، وما أعد للكفرة الفجار من العقاب والخسران، ولهذا كثر حديثُ القرآن عن القيامة وأهوالها، والكتابِ الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وعن الميزانِ الذي تُوْزَنُ به الحسنات والسيئات حتى لا يضيعَ على الإنسان مثقال حبة من خردل، وعن الحساب الدقيق الذي لا يظلم نفساً شيئاً، ولا يحمّل وازرة وزر أخرى، وعن الجنة وما فيها من ألوان النعيم المادي والروحي، وعن النار وما فيها من صنوف العذاب الأليم الحسي والمعنوي، ذلك لأن إنسان الآخرة هو امتدادٌ لإنسان الدنيا روحاً وجسماً، فلابدَّ أن يشمل الثواب أو العقاب كليهما[1].

ثانياً. تزكية النفس البشرية:

ومن مقاصد القرآن: الدعوةُ إلى تزكية النفس البشرية، فلا فلاحَ في الأولى والآخرة إلا بالتزكية، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 7 . 10]. فالنفسُ بفطرتها مستعدةٌ للفجور الذي يدنّسها ويدسّيها، استعدادها للتقوى التي تطهرها وتزكيها، وعلى الإنسان بعقله وإرادته أن يختارَ أيَّ الطريقين: طريق التزكية، أو طريق التدسية، ولا ريبَ أنّه إذا اختار طريق التزكية فقد اختار طريقَ الفلاح، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: 14].

وقال سبحانه فيمن يأتي ربه يوم القيامة: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ۝ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

---

[1] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (68).

وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ [طه: 75 . 76].

ورسالاتُ الأنبياء جميعاً كان من مقاصدها: الدعوةُ إلى التزكية، ولهذا رأينا موسى عليه السلام يقول لفرعون حين أُرْسِلَ إليه من ربه: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ [النازعات: 18 . 19].

وكان من الشُّعَبِ الأساسية لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم: التزكيةُ، كما جاء ذلك في أربع آيات من كتاب الله، منها ما جاء في دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للأمة المسلمة الموعودة قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: 129]. ومنها قوله عز وجل: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 151]. وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾[آل عمران: 164]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾[الجمعة: 2].

ولا تتم هذه التزكية إلا بفضل من الله وتوفيقه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: 21].

كما لا بدَّ من جهد الإنسان وجهاده، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [فاطر: 18].

وقد بين القرآن الكريم أثر العبادات في هذه التزكية، كقوله تعالى في أثر الزكاة: ﴿خُذْ

مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: 103].

كما بيّن أثرَ الاداب التي حَثَّ عليها القرآن في هذه التزكية المنشودة للأنفس، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: 30].

وقال في أدب الاستئذان: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [النور: 28].

إنّ الأمر الذي لا ريبَ فيه أنّ صلاح الأمم والمجتمعات إنما هو بصلاح أفرادها، وصلاحُ الأفراد إنما هو بصلاح أنفسهم التي بين جنوبهم، وبعبارة أخرى بتزكية هذه الأنفس، حتى تنتقل من «النفس الأمارة بالسوء» إلى «النفس اللوامة»، ثم «النفس المطمئنة»، وهذا يحتاج إلى جهاد، لكنه جهاد غير ضائع، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: 69][1].

ثالثاً ـ عبادة الله وتقواه:

1 ـ لقد بين القرآن أن المهمة الأولى للإنسان أن يقوم بعبادة الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56]. فالله تعالى هو خالق الإنسان ورازقه، ومدبر أمره، والمنعم عليه بنعم وفيرة لا يمكن للإنسان إحصاؤها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34].

ومن هذه النعم نعمةُ الإيجاد، ونعمةُ الرزق، ونعمةُ العقل، ونعمةُ الإرادة، ونعمةُ القدرة، ونعمةُ البيان «النطقي» و«الخطي»، ونعمةُ تسخير الكون للإنسان.

وعدّد القرآن جملاً من هذه النعم الوفيرة السابغة في عددٍ من سور القرآن، أظهرُها في

---

[1] كيف نتعامل مع القرآن الكريم؟ ص (85).

سورة النحل، التي تسمّى «سورة النعم»، ومن حق الخالق الرازق المنعم أنْ يُشْكَرَ فلا يُكْفَرُ، وأن يُذْكَرَ فلا يُنْسَى، وأن يُطاعَ فلا يُعْصَى، ولا يتأتّى ذلك إلا بالعبادةِ الخالصةِ له، فالعبادةُ من حقه وحدَه جل وعلا؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 21 ـ 22].

وعند تأمُّل القرآن الكريم والسنة النبوية، وما تحويه من أخبار، وأوامر ونواهٍ، ووعد ووعيد، نجدها كلها تدور حول تقرير ألوهية الله سبحانه وتعالى، وعبودية الإنسان له.

فإذا كان خلقُ الإنسان؛ وتسخيرُ الكون له؛ وإيجاد العقل والقلب والإرادة فيه، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وخلق الجنة والنار، وقبل ذلك وبعده ما تقتضيه صفات الباري جلّ وعلا من كونه في ذاته وصفاته وأفعاله حكيماً عليماً، خلق كلَّ شيءٍ وقدره تقديراً، ولم يخلق شيئاً عبثاً، ولم يوجد شيئاً لغير حكمة. وإذا كان القرآن المجيدُ وما فيه من أخبار وأوامر ووعد ووعيد جاء لأجل هذه المهمة العظيمة، ألا وهي تعبيد الخلق كلهم لله سبحانه، ولذلك جعل اللهُ دائرةَ العبادةِ التي خلق الله لها الإنسان، وجعلها غايته في الحياة، ومهمته في الأرض، دائرةً رحبةً واسعةً: أن تشمل شؤون الإنسان كلها، وتستوعب حياته جميعاً، وتستغرق جميع مناشطه وأعماله[1].

1. عبادة الله تعالى:

---

[1] العبادة في الإسلام، للقرضاوي ص (53).

فالعبادةُ في مفهوم الإسلام: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداءُ الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجهاد الكفّار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتامى والمساكين وابن السبيل والمملوك من الادميين، والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حبُّ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة [1].

وبهذا التعريف الجامع لا يمكن أن يخرجَ أي شيء من نشاطات الإنسان وأعماله، سواء إن كان ذلك في العبادة المحضة، أو في المعاملات المشروعة، أو في العادات التي طُبِعَ الإنسان على فعلها[2]، ولذلك يحرص المسلمُ أن تكونَ حياتُه كلّها عبادةً من لحظة التكليف إلى الموت، امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **[الأنعام: 162]**.

وهذه العبادات كلها تُعِدُّ المسلمَ لتقوى الله، كما جاء في الاية التي ذكرناها: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ **[البقرة: 21]**[3].

2. تقوى الله تعالى:

وهي أن يجعلَ العبدُ بينه وبين ربه وقايةً من غضبه وسخطه وعذابه، وهي أن يعملَ

---

[1] مجموع الفتاوى لابن تيمية (150/10).

[2] فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، للمؤلف ص (185).

[3] كيف تتعامل مع القران الكريم؟ ص (79).

بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله، وأن يتركَ معصيةَ اللهِ على نورٍ من اللهِ، يخافُ عقابَ الله [1].

وأساسُ تقوى الله خشية الله، وذلك من عمل القلب، ولذا أضافها القرآن إليه وقال: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: 32].

ويأمر الله تعالى المؤمنين بالتقوى قبل أوامره سبحانه، لتكون حافزاً له على امتثال ما يأمر به، كما في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 35]. وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70 . 71]. وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119]. وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 1].

ويذكر الله في القرآن التقوى أحياناً قبل النواهي، لتكونَ دافعاً للانتهاء عنها، كما في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 278 . 279].

بل يقصُّ علينا القرآن أنّ الرسل جميعاً دعوا أقوامهم إلى تقوى الله، كما نجد في سورة الشعراء نوحاً [108]، وهوداً [126]، وصالحاً [150]، ولوطاً [163]، وشعيباً [179] يقول كل منهم لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

ولهذا جعل القرآن وصية الله للأولين والآخرين هي التقوى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ

---

[1] فقه النصر والتمكين، للمؤلف ص (204).

وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 131].

ولم يكتف القرآن من المؤمنين بمجرّد التقوى، بل قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 102]، ومعناه: بذل الجهد، واستفراغ الوسع في تقواه عزّ وجلّ، في حدود الطاقة والاستطاعة،

كما قال تعالى في الاية الآخرى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16]، وليست هذه الايةُ ناسخةً للاية الآخرى، بل مبينةً لها: أنّ تقوى الله حق تقواه إنّما تُطْلَبُ في إطار المقدور للمكلّف، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

والتقوى لا تعني العصمة من الذنوب، فالمتّقون ليسوا ملائكةً أطهاراً، ولا أنبياء، بل هم بشر يصيبون ويخطئون، ومزيتهم هي رهافةُ حسهم، ويقظةُ ضمائرهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: 201].

فإذا زلّت قدمُ أحدهم إلى المعصية، فسرعان ما يثوبُ إلى رشده، ويتوب إلى ربه، ويقرع بابَه مستغفراً، كما قال تعالى في وصف المتقين من عباده: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: 135].

ومن تدبر القرآن وجده قد ربط خيرات الدنيا والآخرة كلها بالتقوى، فمن ثمار التقوى العاجلة والاجلة:

- المخرجُ من كلِّ ضيقٍ، والرزق من حيث لا يَحْتَسِبُ العبد:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2 . 3].

- السهولة واليسرُ في كلِّ أمر:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: 4].

- تيسير العلم النافع:

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 282].

- إطلاقُ نور البصيرة:

قال تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾ [الأنفال: 29].

- محبة الله ومحبة ملائكته والقبول في الأرض:

قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: 76].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أحبَّ الله العبد قال لجبريل: قد أحببتُ فلاناً فأحبّه، فيحبُّه جبريلُ عليه السلام، ثم ينادي في أهل السماء: إنَّ الله قد أحبَّ فلاناً فأحبوه، فيحبّه أهلُ السماءِ، ثم يوضعُ له القبولُ في الأرضِ»[1].

- نصرة الله عز وجل وتأييده وتسديده:

وهي المعية المقصودة بقول الله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: 194].

- البركاتُ من السماء والأرض:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96].

- البشرى وهي الرؤيا الصالحة وثناء الخلق ومحبتهم:

---

[1] مسلم رقم (2637).

قال تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخرة﴾ [يونس:62-64]. والبشرى في الحياة الدنيا هي ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكانٍ في كتابه، وعن النبيّ صلى الله عليه وسلم: «الرؤيا الصالحةُ من الله»[1]، وعن أبي ذر قال: قلتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم: الرجلُ يَعْمَلُ للهِ ويحبُّه الناس، فقال: «تلك عاجِلُ بشرى المؤمن»[2].

- **الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم:**

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: 120].

- **حفظ الذرية الضعاف بعناية الله تعالى:**

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾ [النساء: 9]. وفي الاية إشارةٌ إلى إرشاد المسلمين الذين يخشون ترك ذرية ضعافٍ، إلى التقوى في سائر شؤونهم، حتى يحفظَ أبناءَهم، ويدخلوا تحت حفظ الله وعنايته، والاية تشعرُ بالتهديد بضياع أولادهم إن فقدوا تقوى الله، وإشارة إلى أنَّ تقوى الأصول تحفظ الفروع، وأنّ الرجال الصالحين يُحْفَظون في ذريتهم الضعاف كما في آية: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: 82]. فإن الغلامين حُفِظا ببركة أبيهما في أنفسهما ومالهما[3].

---

(1) البخاري، رقم 6986

(2) مسلم، (2642).

(3) فقه النصر والتمكين، للمؤلف ص (204).

- **سبب لقبول الأعمال التي بها سعادة العباد في الدنيا والآخرة:**

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27].

- **سبب النجاة من عذاب الدنيا:**

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: 17-18].

- **تكفير السيئات، وهو سبب النجاة من النار، وعظم الأجر هو سبب الفوز بالجنة:**

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: 5].

- **هم الورثة لجنة الله:**

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: 63].

- **يسيرون إلى الجنة ركباناً:**

مع أنّ الله عز وجل يقرّبُ إليهم الجنة تحيةً لهم، ودفعاً لمشقتهم. قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: 31]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَانِ وَفْدًا﴾ [مريم: 85].

- **تجمعُ بين المتحابين من أهلها حين تنقلب كل صدقة ومحبة إلى عداوة ومشقة:**

قال تعالى: ﴿الْأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67].

ومن بركة التقوى أنّ الله عزّ وجلّ ينزع ما قد يعلق بقلوبهم من الضغائن والغل، فتزداد مودتهم وتتم محبتهم وصحبتهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ

۞ ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ ۞ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[الحجر: 45 . 47][1].

تتخذُ دعوة القرآن إلى التقوى أساليبَ شتى من الأمر بها، وبيان اثارها، والثناء على أهلها، والترغيب في محاسنهم، وتجلية فضائلهم، والترهيب من تركها، والإعراض عنها، والاتصاف بأضدادها، حتى يظهرَ الفرق بين المتقين والفجار، أو بين أهل البر والتقوى، وأهل الإثم والعدوان[2].

رابعاً . إقامة العدل بين الناس:

العدل من الأسس والقيم التي جاءت بها جميع الشرائع السماوية، فأنزل الله به كتبه، وأرسل به رسله. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25]: أي: العدل، فما من كتاب أنزل ولا رسول أُرسل إلا أمر أمته بالعدل، وأوجبه عليها، والأممُ بين طائع اخذ منه بنصيب، وحائدٍ مائلٍ عن العدلِ والقسط بجهلٍ أو هوى، والرسلُ ما تزال تجدّدُ ما نسيته الأجيال، وتذكر الناسَ بما نسوا إلى أن ختمت الرسالاتُ بخاتمِ الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم.

ولما كانت هذه الرسالةُ المحمدية خاتمةَ الرسالات، والنبيُّ محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والرسل، وهذه الأمةُ . التي جعلها الله شاهدةً على الناس وقيّمة على البشرية، تبلّغها دين الله، وتشهد لها بالإيمان أو عليها بالكفر والعصيان . هي خاتمة

---

[1] فقه النصر والتمكين ص (209).

[2] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (82).

الأمم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 143]: فقد كان العدلُ من أهم ما يجب على هذه الأمة، بل هو من أعظم ما يميّزها عن الأمم، ولم يكتف الحقُّ تبارك وتعالى بإيجابِ العدل على هذه الأمة، بل أراد منها أن تجعلَه خُلقاً من أخلاقها، وصفةً من صفاتها، وصبغةً تصطبغ بها من دون الناس، فأمرها أن تكونَ قائمةً بالعدل، بل قوامةً به بين الناس، لله عز وجل، لا لأي شيءٍ آخر، فلا تحابي فيه قريباً لقرابته، ولا تضارّ عدواً لعداوته. قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة: 8].

فالعدل الذي أمر به الله عز وجل في القرآن الكريم حقٌّ لكل الناس جميع الناس، لا عدلاً بين المسلمين فحسب، ولا عدلاً مع أهل الكتاب دون سائر الناس، وإنما هو لكل إنسان بوصفه إنسان، فهذه الصفة ـ صفة الناس ـ هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني، وهذه الصفة هي التي يلتقي عليها البشر جميعاً مؤمنين وكفاراً، أصدقاء وأعداءً، سوداً وبيضاً، عرباً وعجماً، والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل متى حكمت أمرهم[1].

فالعدل من مقاصد القرآن الكريم، وقد أوجبه الله على المؤمنين به، ولو كان مراغمةً لعواطف البغض والعداوة، ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾، وهو كذلك واجبٌ، ولو كان فيه مراغمة لكافة عواطف الحب والمودة والقرابة ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: 135].

---

[1] انظر: في ظلال القرآن (414/2).

والأمة مأمورة بأن تقوم بالعدل والقسط والشهادة لله، وليس لأحد سواه، وأن يكون ذلك منهم بدافع التقوى والخوف من الله عز وجل؛ حتى يصبح الجميع أمام العدل سواء، من دون اعتبار لدوافع الحب والولاء والقرابة، أو البغضاء والشنان والعداوة؛ لأنها إنما تقوم بالعدل والقسط بين الناس لله وبأمر الله، والعدل بهذه الصورة الشاملة لم تعرفه البشرية قط إلا على يد هذه الأمة، ولم تنعم به البشرية قط إلا تحت حكم الأمة المسلمة[1].

خامساً . الشورى:

من مقاصد القرآن الكريم: تحقيق ممارسة الشورى بين الناس.

1 . قال تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ۝ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[الشورى: 36 . 38].

وهناك دلالات لطيفة لقيمة الشورى في الإسلام، في ضوء تفسير هذه الاية، فالاية وردت في سورة تحمِلُ اسم الشورى، وهي سورة الشورى، وتسمية إحدى سور القرآن الكريم باسم الشورى هو في حدِّ ذاته تشريفٌ لأمر الشورى، وتنويه بأهميتها ومنزلتها، وجاءت الشورى في هذه الاية وصفاً تقريرياً، ضمن صفات أساسية لجماعة المؤمنين المسلمين، فهم بعد إيمانهم متوكلون على ربهم، مجتنبون لكبائر الإثم والفواحش، مستجيبون لأمر ربهم، مقيمون لصلاتهم، وأمرهم شورى بينهم، ويزكون

---

(1) الوسطية في القرآن الكريم، للمؤلف (94).

أموالهم، وينفقون منها في سبيل الله[1].

وهي اية مكية، مما يدل على أنّ الشورى في الإسلام ممارسةٌ اجتماعية قبل أن تكون من الأحكام السلطانية، وهي تصفُ حال المسلمين في كلِّ زمان ومكان، فهي ليست طارئةً ولا مرحليةً، ولقد جعل الله سبحانه احترامَ الشورى من أثمن خصال المؤمنين وصفاتهم.

وهي تجعل جميع المسلمين فيما لم ينزل فيه وحي، شورى بينهم، فهي حق لهم جميعاً، إلا ما كان من شأن أهل العلم والتخصص، فإنّ المؤمنين يحملهم إيمانهم أن يردوا ما أشكل عليهم إلى مَنْ يعلمُ كيف يستنبطُ الأحكام من النصوص[2].

وقد انتبه عدد من العلماء إلى وقوع هذه الاية الكريمة كصفة من ضمن صفات تعدّ من المقومات والأركان الاساسية في ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾، وهو ما يعني أنها واحدةٌ من تلك الفرائض والأركان. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ يدل على جلالة موقع ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾، لذكره لها مع الإيمان وإقامة الصلاة، ويدل على أنهم مأمورون بها.

2 . وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[ال عمران: 159].

وهذه الاية جاءت خطاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته داعياً وهادياً، ومرشداً ومربياً، وأميراً وقائداً، وهذا ما يقتضيه أن يكون رفيقاً بالناس، متلطفاً معهم،

---

[1] الشورى في معركة البناء، أحمد الريسوني ص (21).

[2] الشورى مراجعات في الفقه والسياسة، د أحمد الإمام ص (15).

رحيماً لهم، عفواً عنهم، متسامحاً معهم، بل مستغفراً لهم في أخطائهم وذنوبهم، ومستشيراً لهم، ومراعياً لارائهم، وهذا الأمرُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الله بمشاورة أصحابه أمرٌ لكل من يقوم مقامه من الدعاة والقادة والأمراء، بل إنَّ العلماءَ والمفسرين يعتبرون أنَّ هؤلاء مأمورون من باب أولى وأحرى، فهم الأحوجُ إلى هذا الأمر، وبفارق كبير جداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن هنا عُدت هذه الايةُ قاعدةً كبرى في الحكم والإمارة، وعلاقة الحاكم بالمحكوم، فالشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين ـ وأهل التخصص في فنون العلوم ـ فعزله واجب، وهذا ما لا خلاف فيه[1].

إن الشورى مقصد من المقاصد الإسلامية، وجزء من الشريعة الإسلامية.

سادساً ـ الحرية:

من مقاصد القرآن الكريم: إبطالُ عبودية البشر للبشر، وتعميم الحرية لكل الناس، ومن قواعد الفقه قول الفقهاء: الشارعُ متشوِّفٌ للحرية، فذلك استقراؤهم من تصرفات الشريعة؛ التي دلت على أنّ من أهم مقاصدها إبطال العبودية وتعميم الحرية، ولكن دأبُ الشريعةِ في رعي المصالح المشتركة، وحفظ النظام العام، وقفَ بها عن إبطال العبودية بوجه عام، وتعويضها بالحرية، وإطلاق العبيد من ربقة العبودية، وإبطال أسباب تجدّد العبودية، مع أنّ ذلك يخدم مقصدَها، كان ذلك التوقف من أجل أنَّ نظامَ المجتمعات في كل قطر قائمٌ على نظام الرق، فكان العبيدُ عمّال في الحقول، وخدم في المنازل والغروس، ورعاة للأنعام، وكانت الإماء حلائل لسادتهن، وخادمات في منازلهم، وحاضنات لأبنائهم، فكان الرقيقُ لذلك من أكبر الجماعات

[1] انظر: في ظلال القران (2/ 414).

التي أقيمَ عليها النظام العائلي والاقتصادي والاجتماعي لدى الأمم حين طرقتهم دعوة الإسلام، فلو جاء الإسلام بقلب ذلك النظام رأساً على عقب؛ لانفرط عقدُ نظام المدينة انفراطاً تعسر معه عودة انتظامه، فهذا موجب إحجام الشريعة عن إبطال الرق الموجود، وأما إحجامها عن إبطال تجدد سبب الاسترقاق الذي هو الأسر في الحروب، فلأن الأمم التي سبقت ظهور الإسلام قد تمتعت باسترقاق من وقع في أسرها، وخضع إلى قوتها، وكان من أكبر مقاصد سياسة الإسلام إيقاف غلواء تلك الأمم، والانتصاف للضعفاء من الأقوياء، وذلك ببسط جناح سلطة الإسلام على العالم، وبانتشار اتباعه في الأقطار، فلو أن الأمم التي استقرت لها سيادة العالم من قبلُ أمنت عواقب الحروب الإسلامية . وأخطر تلك العواقب في نفوس الأمم السائدة الأسر والاستعباد والسبيُ . لما ترددت الأمم من العرب وغيرهم في التصميم على رفض إجابة الدعوة الإسلامية اتكالاً على الكثرة والقوة، وأمناً من وصمة الأسر والاستعباد[1]، كما قال صفوان بن أمية في مثله: لأن تربُّني قريشٌ خيرٌ من أن تربُّني هوازن.

وكما قال النابغة:

حذاراً على أن لا تُنالَ مقادتي ولا نسوتي حتى يَمُتْنَ حرائرا[2]

فنظر الإسلامُ إلى طريقٍ بين مقصدي: نشر الحرية وحفظ نظام العالم، بأن سلَّط عوامل الحرية على عوامل العبودية مقاومة لها لتقليلها، وعلاجاً للباقي منها، وذلك بإبطال أسباب كثيرة من أسباب الاسترقاق، وقصره على سبب الأسر خاصة،

[1] مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور ص (393).

[2] المصدر نفسه ص (392).

فأبطل الاسترقاق الاختياري، وهو بيع المرء نفسه، أو بيع كبير العائلة بعضَ أبنائها، وقد كان ذلك شائعاً في الشرائع، وأبطل الاسترقاق لأجل الجناية، بأن يُحْكَمَ على الجاني ببقائه عبداً للمجني عليه، وقد حكى القرآن عن حالة مصر: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ [يوسف: 75]. وقال: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: 76].

وأبطل الاسترقاقَ في الدَّين الذي كان شرعاً للرومان، وكان أيضاً من شريعة سولون في اليونان من قبلُ، وأبطل الاسترقاقَ في الفتن والحروب الداخلية الواقعة بين المسلمين، وأبطل استرقاق السائبة، كما استرقت السيارةُ يوسف عليه السلام إذ وجدوه.

ثم إن الإسلام التفت إلى علاج الرق الموجود، والذي سيوجد، بروافع ترفعُ ضرر الرق، وذلك بتقليله عن طريق تكثير أسباب رفعه، وبتخفيف اثار حالته، وذلك بتعديل تصرف المالكين في عبيدهم الذي كان مالكه معنتاً[1].

ومن منافذ الحرية للأرقاء التي فتحها الإسلام:

1 ـ جعل الإسلام تحرير الأرقاء قربة إلى الله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ [البلد: 12].

2 ـ كفارة يمين الحانث: إطعام عشرة مساكين، أو تحرير رقبة.

3 ـ كفارة الظهار لمن أراد أن يرجع زوجته بدايتُه تحرير رقبة، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: 3].

4 ـ من أفطر في نهار رمضان: فعليه كفارة، منها تحرير رقبة.

---

[1] مقاصد الشريعة ص (393).

5 ـ ملك اليمين إذا أنجبت من سيدها، تسمّى «أم ولد»، فإذا مات سيدها قبلَها صارتْ حرةً.

6 ـ المكاتبة: أن يتفق العبدُ مع سيده على مبلغٍ من المال يدفعه، أو يقوم بعمل يصيرُ بعده حراً، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: 33].

7 ـ العبد الذي يملكه اثنان أو جماعة، فإذا حرَّرَ واحدٌ منهم نصيبه، امتنع أن يباع العبد.

8 ـ تحرير الأرقاء مصرف من مصارف الزكاة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 60].

لقد انقرض الرق أمام أبواب الحرية التي فتحها الإسلام، ولم يكن الإسلام أول من أباح الرق، بل كان أول من حرر الأرقاء بأسلوب منطقي، بأسلوب الترغيب تارة وبأسلوب الترهيب تارة أخرى عن طريق الكفارات، كما رأينا[1].

لقد قتل الإسلام مشاعر الإحساس بالعبودية، بأن ترفّع عن نداء العبد بكلمة عبدي، وإنّما بأسلوبٍ أرقى، وهو كلمة: غلامي وجاريتي، وفتاي وفتاتي، قال صلى الله عليه وسلم: «لا يقولنّ أحدُكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي، ولا يقل أحدكم: ربّي، وليقل سيدي»[2].

---

(1) حقوق الإنسان في الإسلام، د. مبارك سيف الهاجري وعبد المنعم حسين العمري ص (107).

(2) البخاري رقم (2552) مسلم رقم (2249).

وقد نهى النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن التشديد في الخدمة، ففي الحديث: «لا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه فليعنه»، والأمر بكفاية مؤنتهم وكسوتهم، ففي حديث أبي ذر رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عبيدكم خَوَلكم، إنما هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جُعِلَ أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس»[1] ونهى عن ضربهم الضرب الخارج عن الحد اللازم، فإذا مثّل الرجل بعبده عتق عليه[2].

فمن استقراء هذه التصرّفات ونحوها حصل لنا بأنَّ الشريعةَ قاصدةٌ بثَّ الحرية، والقضاءَ على العبودية للمخلوق.

والقرآن الكريم من مقاصده تركُ الخيار للناس كافة في اختيار المعتقَدِ بعد تبيّن الرشد من الغي، وتترك لهم كذلك حرية التفكير، وحرية التعبير. وإليك الشرح:

1 . حرية الاعتقاد:

أسس الإسلام حرية الاعتقاد لإبطال المعتقدات الضالّة التي أكْرَهَ دعاةُ الضلالة أتباعهم ومريديهم على اعتقادها من دون فهم ولا هدًى، ولا كتاب منير، وبالدعاء إلى إقامة البراهين على العقيدة الحقة، ثم بالأمر بحسن مجادلة المخالفين وردّهم إلى الحق بالكلمة والموعظة، وأحسن الجدل، ثم بنفي الإكراه في الدين[3]، قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ **[البقرة: 256]**.

ولو أراد الخالقُ جلّت قدرتُه لدخلَ جميعُ مَنْ على الأرض من الناس في دينِ

---

(1) مقاصد الشريعة، محمد الطاهر بن عاشور ص (395).
(2) المصدر نفسه ص (395).

(3) مقاصد الشريعة ص (396).

الإسلام، ولكنْ له حكمةٌ في إعطاء الناس الحرية فيما يختارون وما يسلكون من طريق، حيث قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99].

ولا شك أنَّ الإنسان بما وهبه الله من عقل وسمع وبصر قادرٌ على التمييز بين الحق والباطل، حتى يستطيعَ اختيارَ الطريق الصحيح، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: 2 . 3].

وتتكرّرُ الآيات القرآنية في أكثر من سورةٍ حول حريةِ الاعتقاد، وعدم إجبار مَنْ لم يقتنع بالإسلام على اعتناقه، فيخاطِبُ الله تبارك وتعالى نبيَّه محمداً صلى الله عليه وسلم قائلاً: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: 107]. وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: 48]. وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: 21 . 22]. وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: 80].

والدين الإسلامي الحنيف ليس دينَ قمعٍ وإكراهٍ، بل دينُ يسرٍ، يقوم على مبدأ وسائل الإقناع، والتزام جادّة العقل من خلال منهج الحوار البنَّاء، والتعبير الحر، والجدال الموضوعي المنطقي في النقاش، البعيد عن المهاترات وإثارة الفتن، والشريعةُ الإسلامية تشدّد وتؤكد على قدسية هذا المنهج؛ لذا نجد أنّ الخالق يأمرُ رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يدعوَ الناس إلى دين الإسلام بالحكمة، ويخاطبه

قائلاً: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

وفي مجادلة أهل الكتاب يقول تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 46][1].

2 . حرية التعبير «الأقوال»:

فهي التصريحُ بالرأي والاعتقادِ في منطقةِ الإذن الشرعي، وقد أمر الله ببعضها في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]. وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: 110]. وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: 71]. وقال تعالى: ﴿يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان: 17].

وقد جاء التوجيه القرآني الكريم بالتزام القول الحسن، وترك ما عداه ممّا لا فائدةَ منه، أو ممّا فيه مضرةٌ في الدين، أو في العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع المسلم.

وقد حدد القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ضوابط الكلام وادابه تحديداً دقيقاً وواضحاً، نجمل شيئاً منه فيما يلي:

1 . الضوابط المتعلقة باللفظ في مثل قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 104].

[1] حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، د. صالح عبد الله الراجحي ص (111).

2 . الضوابط المتعلقة بالمضمون في مثل قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33].

3 . الضوابط المتعلقة بالهدف والأسلوب في مثل قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 70].

4 . الضوابط المتعلقة بالتوقف والتثبت من المصدر في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء: 83]. والاية الأخيرة: إنكارٌ على من يبادرُ إلى الأمور قبل تحقُّقها، فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا تكونُ لها صحةٌ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»[1]، وعن المغيرة بن شعبة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نهى عن قيل وقال»[2]، أي: الذي يكثر من الحديثِ عمّا يقول الناس من غير تثبت، ولا تدبر، ولا تبين[3].

5 . كما حرّم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الكذب والغيبة والنميمة وشهادة الزور والسب والشتم والقذف في أدلة ظاهرة معلومة من الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة[4].

---

[1] مسلم رقم (7).
[2] مسلم رقم (4485).
[3] تفسير ابن كثير (529/1)، حرية التعبير، محمد بن محمد الخزعان ص (45).
[4] حرية التعبير، د. محمد الخزعان ص (46).

3. حرية الفكر:

لم يترك القرآن الكريمُ أسلوباً نفسياً أو واقعياً إلا واتبعه من أجل حثِّ الإنسان على التفكير، واستعمال عقله بصورةٍ واضحةٍ جلية، وإليك أخي القارئ الكريم البيان:

أ ـ طلب القرآن الكريمُ من الناس أن يستعملوا عقولهم، ويفكروا، ولنستمع لهذه الآيات في الإيمان ورسوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ: 46].

وفي تفسير طبيعة الرسالة وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم يقول تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: 50].

وفي لفت النظر إلى أسرار التشريعات المختلفة عبادية أو اجتماعية، يقول تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيات لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾[البقرة: 219].

وفي إشعار الإنسان بأنّ هذا الكونَ كلَّه خُلِقَ لارتفاقه، ويُسِّرَ برُّه وبحرُه وعلوُّه وسفلُه له[1]، يقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: 13].

ب ـ طلب القرآن الكريم من البشر أن يستعملوا عقولهم فيما تراه عيونهم ببساطة من ظواهر يومية، ويفكروا فيها، وفي سبب وكيفية وجودها، وذلك حتى يعرفوا أنّ هنالك

---

[1] حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، محمد الغزالي ص (80-81)، حقوق الإنسان، د. هاني الطعيمات ص (154).

سبباً، وهناك علاقة بين كل ما يتضمنه هذا الكون؛ الذي تمَّ ترتيبه بإحكام ودقة، وفي النظر في السماوات وما حوته، وفي الأرض وما عليها، يقول تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [يونس: 101].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمّىً﴾ [الروم: 8].

وقال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[الغاشية: 17 . 20].

وفي النظر في أصل نشأة الإنسان وخَلْقِه يقول تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [الطارق: 5 . 7]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ [يس: 77].

ج . وحتى يحفّز القرآن الكريم العقلَ الإنسانيَّ للتفكر هاجمَ الذين يلغون عقولهم وتفكيرهم، ونعى عليهم هذه الطريقة في الحياة التي تجعلُهم كالدواب، ذلك أنَّ العقل الإنساني وملكة التفكير هي التي تميّزُ الإنسان من الحيوان، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّيُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: 179].

د . نبه القرآن الكريم إلى العوائق الواقعية التي تعطّل التفكير، وطلب إزالتها حتى لا تقفَ بوجه العقل الإنساني، والتفكير الصحيح، فرفض التبعية الفكرية، والإيحاء الفكري المتوارث عائلياً واجتماعياً، فأكد بذلك شخصية كل فرد، واستقلاليته الفكرية. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ

آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 170]. وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ۝ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: 22، 23].

فالمترفون عادةً لا يريدون التفكير في الأسس الاجتماعية والاقتصادية والعقائدية، لأنّهم طبقة مستفيدة من الوضع القائم، فهي لا تريدُ حتى التفكير في وضع جديد[1].

كما نبّه القرآن الكريم إلى عائق اخر ذي تأثير عملي، ألا وهو الطاعة العمياء بلا فكر لأصحاب الجاه والسلطان، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ ﴾ [الأحزاب: 67].

هـ واستعمل القرآن الكريم أسلوب المقارنة الفكرية بين الشيء وضده لينشِّطَ العملية الفكرية، وليخلق ملكةَ المقارنةِ، ويطوّر المقدرة على التفكير بشكل صحيح[2]، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد: 16].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: 24، 26].

---

[1] حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ص (155).

[2] حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ص (155).

و . وأفرد القرآن الكريم مكانةً خاصةً للذين يفكّرون ويتعمّقون في التفكير، ويصبح تفكيرُهم علماً نافعاً للإنسان في هذه الحياة، وميّزهم، عن غيرهم وما ذلك إلا مرحلة أخرى متقدّمة من كيفية طلب التفكير وضرورته، واحترام العقل الإنساني، ودفعه نحو أرقى مراحل العلم، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ **[المجادلة: 11]**.

وبهذا يكون المنهجُ القرآنيُّ وضع حرية التفكير في الاتجاه السليم والمنطق الصحيح، فليس فيها أوهام وخرافات، وليس فيها جمودٌ ولا تقليد، وإنما هي دعوة لتكريم العقل الإنساني، وتحريره من ربقة البلادة والخمول، وتنبيهه إلى أداء مهمته في البحث والتفكير[1].

ولقد ظهرت حرية العلم والتعليم والتأليف والتفكير في أجمل مظهرٍ في القرون الثلاث الأولى من تاريخ الإسلام، إذ نشر العلماءُ فتاواهم ومذاهبهم وعلمهم، واحتجَّ كل فريق لرأيه، ولم يكن ذلك موجباً للمناوأة ولا للحزازات، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها، فرب حامل فقه إلى ما هو أفقه منه، ورب حامل فقه إلى ما ليس بفقيه»[2].

وهذا هو المقامُ الذي تحقق فيه مالك بن أنس حين قال له الخليفة أبو جعفر المنصور: إني عزمتُ أن أكتب من كتابك «يعني الموطأ» نسخاً، ثم أبعثُ إلى كلِّ مصرٍ من الأمصار نسخةً، وامرهم أن يعملوا بما فيها، ولا يتعدوها إلى غيرها.

فقال الإمام: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإنَّ الناسَ قد سبقت لهم أقاويلُ، وسمعوا

---

[1] حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ص (156).

[2] مقاصد الشريعة، محمد الطاهر بن عاشور ص (397).

أحاديث، وأخذ كلُّ قوم بما سبق إليهم من اختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم وأن ردهم عن ذلك شديد، فدع الناسَ وما هم عليه[1].

4 ـ حرية التنقل:

كفل الإسلام حرّيةَ التنقل لكلِّ فردٍ حسبما يريدُ، سواء كان ذلك داخلَ حدودِ الدولة الإسلامية أم خارجها، ويمكن إجمالُ صور التنقل فيما يلي:

أ ـ التنقل لتحقيق نفع ديني ودنيوي:

وذلك مثل التنقل طلباً للرزق بالطرق المشروعة، من تجارةٍ وغيرها، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: 15].

ومثل التنقل طلباً للعلم، قال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: 122].

ومثل السفر بقصد زيارة الأرحام والإخوان في الله، وبقصد زيارة البقاع الشريفة كمكة والمدينة، ومثل السفر بقصد الترويح عن النفس على الوجه المشروع، فالسياحةُ مباحة، لأنها تفتح العينَ والقلبَ على المشاهدة الجديدة التي لم تألفها العينُ، ولا يملّها القلبُ، بل قد تكون السياحةُ مندوباً إليها، إذا كانت على سبيل التدبر والاعتبار، ومعرفة سنن الله تعالى في الأمم السالفة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام: 11].

ب ـ التنقل لأداء واجب ديني:

كالسفر لأداء فريضة الحج، أو الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ

---

(1) المصدر نفسه ص (397).

بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج: 27]. وقال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: 41].

وهذا خطاب للمؤمنين، وعقب ذلك أنزل الله تعالى في شأن المنافقين قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة: 42]، أي: لو كان ما دعوتهم إليه من الخروج في سبيل الله سفراً وسطاً، ومتاعاً من الدنيا سَهْلَ المأخذ، لاتّبعوك، وخرجوا معك طلباً للغنيمة[1].

جـ الهجرة حفاظاً على سلامة العقيدة:

أوجب الإسلام الهجرة على كل مسلم تعرّضَ للذل أو المهانة، أو خاف أن يفتن في دينه، ووصف الذين يتقاعسون عن الهجرة، مع استطاعتهم لها؛ بأنهم من الظالمين لأنفسهم، ولم يستثن من ذلك إلا الفئة العاجزة فعلاً عن الهجرة من كبار السن والنساء والولدان، وقد قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴾ [النساء: 97 . 98][2].

إنَّ الإسلام اعتنى بالحرية بأنواعها، وقدّرها حقّ قدرها، سواء حرية الاعتقاد، أو

---

[1] حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ص(140).

[2] حقوق الإنسان وحرياته الأساسية ص (140).

حرية التعبير، أو حرية الفكر، أو حرية التنقل، وجعل الحرية مقصداً من مقاصده.

سابعاً ـ رفع الحرج:

إنّ من مقاصد القرآن الكريم رفع الحرج عن المكلفين، ووردت آيات كثيرة جداً تبيّن أن هذا الدين دين يسر، وأنّ الله قد رفع الحرج عن هذه الأمة فيما يشق عليها، حيث لم يكلّفها إلا وسعها، وسأبيّن أدلةَ التيسيرِ، ثم أدلة رفع الحرج، ثم أدلّة عدم التكليف بغير الوسع والطاقة.

1 ـ أدلة التيسير والتخفيف:

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]. وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: 28]. وقال عز وجل: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾ [الأعلى: 8]. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: 5 ـ 6]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: 4]. وقال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: 7]. هذه بعض الآيات التي تفيد التيسير على هذه الأمة، وقد ذكر المفسرون في تفسيرهم هذه الآيات؛ أنّ الله أراد لهذه الأمة اليسر، ولم يرد لها العسر[1].

2 ـ أدلة رفع الحرج:

من أقوى الأدلة على رفع الحرج قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78]، أي: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً[2]. وقال سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ

---

[1] تفسير الطبري (156/2)، تفسير ابن كثير (217/1).
[2] تفسير الطبري (207/17).

يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: 6]. وقال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: 91].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ [الأحزاب: 38]. وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: 61].

وفي هذه الآيات دلالةٌ ظاهرةٌ على رفع الحرج عن هذه الأمة، وأنَّ الله لم يجعل في التشريع حرجاً، وبعض هذه الآيات وإن كانت خاصّةً في أحكام معينة، ولكننا نجدُ التعليل عاماً، فكأنَّ التخفيفَ ورفعَ الحرج في هذه الأحكام والفروض بإعادة الشيء إلى أصله، وهو رفع الحرج عن هذه الأمة، فكل شيء يؤدي إلى الحرج لسبب خاص أو عام فهو معفو عنه، رجوعاً إلى الأصل والقاعدة[1].

3 . أدلة عدم التكليف بما يضاد الوسع والطاقة:

قال سبحانه: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286].

وقال الله تعالى كما في الحديث الصحيح: «قد فعلت»[2].

وكذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: 286].

والوسع: ما يسعُ الإنسانَ فلا يعجزُ عنه، ولا يضيقُ عليه، ولا يحرج فيه، قال تعالى: أي: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ يحملها إلا ما تسعه وتطيقه ولا تعجز عنه،

---

[1] الوسطية في ضوء القرآن، د ناصر العمر ص (106).

[2] مسلم رقم (126).

أو يحرجها دون مدى غاية الطاقة، فلا يكلّفها بما يتوقف حصوله على تمام صرف القدرة، فإنّ عامة أحكام الإسلام تقعُ في هذه الحدود، ففي طاقة الإنسان وقدرته الإتيان بأكثر من خمس صلوات، وصيام أكثر من شهر، ولكنَّ الله جلّت قدرتُه، ووسعت رحمتُه، أراد بهذه الأمة اليسرَ، ولم يرد بها العُسْرَ[1].

ومن الأدلّة على أنَّ التكليف بحدود الوسع والطاقة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: 42].

ويقولُ سبحانه: ﴿وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [المؤمنون: 62]. فسنة الله جارية على أنه لا يكلف النفوس إلاّ وسعها، وجاء التأكيد على هذه القاعدة عند ذكر بعض الأحكام الفرعية، فقال سبحانه: ﴿وَعَلَى الْمَولُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 232].

وكذلك قوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: 7].

وكذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: 152].

هذه هي الآيات التي وردت مبيّنةً أنَّ التكليف بحسب الوسع والطاقة، وتبيّن أن رفع الحرج من مقاصد القرآن الكريم.

ثامناً ـ تقرير كرامة الإنسان:

يظهر التكريمُ الإلهيُّ للإنسان في عِدّةِ أمورٍ، منها:

---

[1] رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، صالح بن حميد ص (73).

1 . الإنسان خليفة في الأرض:

أكد القرآن الكريم أن الإنسان مخلوق كريم على الله، فقد خلق ادم بيديه، ونفخ فيه من روحه، وجعله في الأرض خليفة، تكريماً للإنسان، وجاء ذلك في حوار بديع، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 30].

2 . الإنسان محور الرسالات السماوية:

إنّ الإنسان هو المقصودُ غايةً وهدفاً في ابتعاث الرسل، واختيار الأنبياء، وإنزال الكتب والصُّحف، وإنّ الله سبحانه وتعالى الذي جعل ادمَ خليفةً في الأرض، اقتضت حكمته ومشيئته ورحمته بالإنسان ألاّ يخلقه عبثاً، وألاّ يتركه سدًى، وإنّما تكفّل بهدايته وإرشاده، وأخذ بيده إلى الطريق الأقوم، والمنهج الأمثل، وطمأنه منذ استقراره في الأرض أنه لن يدعه طعاماً سائغاً لوساوس الشيطان، ولن يتركه نهباً للوهم، والخبط، والضلال، والشهوات، ولن يسلمه للجهالة والحيرة والضياع، وإنما أكرمه بالهداية والرشاد بالتي هي أقوم[1]، قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 38]. وقال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: 123 . 124].

---

(1) حقوق الإنسان، د. محمد الزحيلي ص (21).

وهكذا توالت الرسلُ، وتتابع الأنبياء، وأُنزلت الكتب، وكلّها تدور على محور واحدٍ، هو الإنسان، بما يحقق له السعادة في الدنيا والآخرة، وجاءت الشرائع لتأمينِ مصالح الناس بجلب النفع لهم، ودفع المضارّ عنهم، فترشدهم إلى الخير، وتهديهم إلى سواء السبيل، وتدلّهم على البر، وتأخذ بيدهم إلى الهدى القويم، وتكشِفُ لهم طريق الخير، وتحذّرهم من الغواية والشرّ[1].

وجاءت الشريعة لتحصيل المصالح وتكميلها، وتقليل المفاسد وتعطيلها[2]، فإنّ الأحكام الشرعية إنما شرعت لجلب المصالح، أو لدرء المفاسد[3].

3 . تكليف الملائكة بالسجود لآدم:

لم يقتصر الأمر الإلهي باختيار الإنسان خليفة في الأرض، بل تأكد ذلك في السماء والجنات العلا، واقترن بالفعل والتطبيق، وأعلن الله تعالى ذلك في الملأ الأعلى بإرادته عن خلق ادم، واتخاذه خليفة، وسجل ذلك في اللوح المحفوظ، وأنزله وحياً يتلى على البشر، ثم أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لادم تعظيماً، واحتراماً له؛ لأنّ الإرادة الإلهية تعلقت باختياره، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ **[ص: 71 . 74]**.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى

---

[1] حقوق الإنسان، د. محمد الزحيلي ص (22).
[2] مجموع الفتاوى (48/20).
[3] الموافقات للشاطبي (195/1).

أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾[الحجر: 28. 31].

وكرّر القرآن الكريم هذا الأمر، وهذه القصة في عدة سور قرآنية لتذكير الإنسان بفضل الله تعالى أولاً، وليعرف مكانته من الوجود والكون ثانياً، وليحذره من غواية إبليس ثالثاً[1].

4. تفضيل الإنسان عن سائر المخلوقات:

صرّح القرآن الكريم بهذا التفضيل والتكريم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: 70].

5. تسخير ما في الكون للإنسان:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20].

وصرّح القرآن الكريم بأنّ الله تعالى خلق الأنعام، وملّكها للإنسان، ثم ذلّلها له للركوب، والأكل، والمنافع، والمشارب، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۝ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: 71. 73].

ووجّه القرآن الكريم الإنسان إلى البحث في الكون، والتعرف على خواصّه وأسراره، والانتفاع به في الحياة.

فقال تعالى عن الثروة المائية: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: 14]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ

---

[1] حقوق الإنسان، د. محمد الزحيلي ص (28).

مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: 141].

وقال تعالى عن الثروة الحيوانية: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ۝ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: 5 . 8].

وقال تعالى عن الثروة الصناعية: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: 25]. وقال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سبأ: 10 . 11].

6 . تكريم الإنسان بالعقل:

فالعقل هو الأداة الكبرى للمعرفة، ويتفرّع عنه التفكير، والإرادة، والاختيار، وكسب العلوم؛ لذلك كان الإنسانُ مسؤولاً عمّا يصدر عنه، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء: 36].

وعدّ القرآن الكريم الإنسانَ الذي يعطل حواسه وعقله أضلّ من الأنعام والحيوان؛ لأن لديه وسائل المعرفة، لكنه عطلها عما خلقت له. قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: 22].

وقد تعدّدت الآيات القرآنية صراحةً وإشارةً في مخاطبة العقل، ودعوته للتفكير،

والنظر والبحث في الكون، وجعل التفكير فريضة إسلامية. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 190 . 191]. وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الروم: 24] وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[البقرة: 164] وقال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الرعد: 4].

وآيات كثيرة تثيرُ العقلَ وتحثّه، وتؤدي بالعقل إلى الإيمان بالله تعالى، واليقين بأنّه الخالق المدبر.

وبالمقابل إذا فشل العقل في أداء هذه الوظيفة فقد وجوده، وسلب الإنسان إنسانيته، وهذا ما أكّده القرآن الكريم بنفي العقل عن الكفار، وحكم عليهم بأنّهم لا يعقلون، وذلك لعدم الاستفادة من السمع والبصر للانتفاع من آيات الكون التي تنطِقُ بوجود الله تعالى، وتوجب طاعته، وعندئذٍ ينسلخ الكافر من إنسانيته، ويتساوى بالحيوان ثم ينحدر عنه[1]، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ

---

[1] حقوق الإنسان، للزحيلي ص (54).

تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾[الفرقان: 43 . 44].

7. تكريم الإنسان بالأخلاق والفضائل:

تظهر كرامة الإنسان والدعوة إلى تكريمه بدعوة الإسلام إلى الأخلاق الفاضلة، وترغيب الفرد والمجتمع بمعالي الأمور، والتسامي عن المادة،

والحض على الخير والفضيلة بين الناس[1]؛ لذلك وصف القرآن الكريم نبيَّه محمداً صلى الله عليه وسلم بأعلى أوسمةِ الفخار والثناء، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: 4]. وبين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إنما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق»[2].

فدعا الإسلامُ الناسَ جميعاً إلى البِرِّ، والرحمة، والإخاء، والمودة، والتعاون، والوفاق، والصدق، والإحسان، ووفاء الوعد، وأداء الأمانة، وتطهير القلب، وتخليصه من الشوائب، كما دعا إلى العدل والمسامحة والعفو، والمغفرة والصبر والثبات، ودعا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحَثَّ على النصيحة وغير ذلك من مكارم الأخلاق والفضائل[3]، والأخلاق الفاضلة تزين الإنسانيةَ، وتُعلي شأنها، وتُنسق بين أفرادها، وتصون العلاقات الجماعية، وتوجيهها إلى الخير والكمال، لتصوّر الحياة البشرية في أجمل صورها، وأحسن أحوالها، وتتجنّب الرذيلة، والفساد الخُلُقي والاجتماعي[4].

---

[1] مجموع الفتاوى (48/20).
[2] الموافقات للشاطبي (195/1).
[3] حقوق الإنسان، للزحيلي ص (28).
[4] حقوق الإنسان في الإسلام، للزحيلي ص (54).

8. تكريم الإنسان في تشريع الأحكام:

وهذا بابٌ واسعٌ يُغطي جميعَ الأحكام الشرعية، ويدفع لمعرفة العلة فيها والحكمة من تشريعها، ولذلك نضربُ بعض الأمثلة فقط كنماذج:

أ. وجود الإنسان:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: 21]. أي: تأنسوا ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾، أي: جنسكم ﴿ لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾أي تأنسوا بها، فإنَّ المجانسة من دواعي التضامن والتعاون ، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، أي: تواداً وتراحماً بعصمة الزواج بعد أن لم يكن لقاء ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

أي: في بدائع هذه الأفاعيل المتينة المبنية على الحكم البالغة[1]

ب. حقوق الأولاد:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: 6] أمر الله عزّ وجلّ في هذه الاية بأن يقي المؤمنون أنفسَهم النار بأفعالهم، وأهليهم بالنصح، والوعظ، والإرشاد، وهذا يتطلّب الالتزام التام بأحكام الشرع أمراً ونهياً، وترك المعاصي، وفعل الطاعات، ومتابعة القيام بالأعمال الصالحة، وحث الزوجة والأولاد على أداء الفرائض، واجتناب النواهي، ومراقبتهم المستمرة في ذلك[2].

---

[1] محاسن التأويل، للقاسمي (4772/13).

[2] التفسير المنير للزحيلي (316/28-320).

ج ـ احترام إرادة الإنسان في العقود والتصرفات:

ومن ذلك: إرشاد القرآن الكريم إلى كتابة المداينة بين الأطراف، ثم أمر بالإشهاد عليها، وبيّن الحكمة والغاية من ذلك: قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [البقرة: 282]. ثم قال تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [البقرة: 282]. ثم بين تعالى الحكمة والغاية، فقال: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة: 282].

كما أنّ الله حرّم الغشّ والاعتداء على أموال الآخرين، واغتصاب حقوقهم؛ لأن ذلك يخلّ بالكرامة السامية للطرفين، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 188]. وقال تعالى: ﴿لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: 29].

لقد احترم الإسلام الإنسان، واعتبر إرادته أساساً في التعاقد، والتعامل حتى سبق تشريعات العالم في سلطان الإرادة العقدية، ثم اعتدّ بالإرادة الإنسانية في سائر التصرفات، وأبطل التصرفات التي تقع بالإكراه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رُفِعَ عن أمتي الخَطَأُ والنسيانُ وما استُكْرِهُوا عليه»[1]، وجمع الحديث بين الخطأ والنسيان، والإكراه؛ لأنّ الإرادةَ مفقودةٌ حقيقةً في هذه الحالات، كما حرّم

---

[1] البخاري (564)، سنن البيهقي (10/ 192).

الإسلام أكل مال الإنسان إلا عن طيب نفسه[1].

د . العقوبات:

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ **[البقرة: 179]**.

لقد حرص المشرِّعُ الحكيم على التكريم الإنساني حتى في باب العقوبات، فقصد حفظ الدماء، والأنفس، والحياة عامة، وراعى الكرامة الإنسانية، فنصّ على الأشياء الممنوعة والمحرمة، وحذّر منها، ورهب من ارتكابها، فإن حصل الخلل، ووقع الخطأ، أو العدوان والإثم، شرع العقاب المناسبَ للجريمة بما لا يمسُّ كرامة الإنسان، فشرع القصاصَ، ومنع المثلة والعدوان، واعتبر العقوبة تأديباً، وإصلاحاً وزجراً وردعاً[2].

وقد ورد في النصوص الشرعية أدلةً كثيرةً في رعاية الجانب الإنساني مع المتهم، والمجرم، والجاني، سواء في معاملته، والتحقيق معه، أم في محاكمته، وتأمين حقوقه الإنسانية، ومنحه الحق في الدفاع عن نفسه، أم في معاقبته، وتنفيذ الحكم عليه بالسجن وغيره[3].

وبعد: فإنَّ جميع الأحكام الشرعية مُراعًى فيها الناحية الإنسانية؛ لأنَّها ما شرعت أصلاً إلا لمصلحته، وإن الشريعة الغرّاء راعت إنسانيةَ الإنسان بالأحكام الحكيمة العادلة المناسبة له قبل الولادة وبعدها، وسمت برعاية اليتيم والأطفال خاصة، ثم الإنسان عامة، طوال فترة الحياة، ثم رعت شؤونه عند الموت، والتجهيز، والغسيل، والتكفين، والصلاة عليه، ومواراته التراب، وعدم الاعتداء على الميت، أو إيذائه بكلمة، أو غيبة، أو بالجلوس على قبره، وهي أحكام إنسانية بكل ما في الكلمة من

---

(1) حقوق الإنسان، للزحيلي ص (64).
(2) المصدر نفسه ص (66).
(3) محاسن التأويل، للقاسمي (13/ 4772).

معنًى، مما يدركه الباحث في العلوم الشرعية والمتفقه في الفقه وأحكام الإسلام، كما يتجلّى لنا التكريم الإلهي للإنسان في كل صغيرة وكبيرة، وفي جميع شؤون الحياة وأطوار الإنسان؛ ليكون المكرَّم، والمفضَّل، والمقدَّم عند الله، والخليفة في الأرض[1].

تاسعاً ـ تقرير حقوق الإنسان:

من مقاصد القرآن الكريم تقرير حقوق الإنسان، فحقوق الإنسان في الإسلام ليستْ منحةً من ملك أو حاكم، أو قرار صادر عن سلطة محلية أو منظمة دولية، وإنّما هي حقوقٌ ملزمة بحكم مصدرها الإلهي لا تقبل الحذف ولا النسخ ولا التعطيل، ولا يسمحُ بالاعتداء عليها، ولا يجوزُ التنازل عنها[2]، ومن هذه الحقوق:

1 ـ حق الحياة:

حياة الإنسان مقدّسةٌ، لا يجوز لأحدٍ أن يعتدي عليها، قال تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32].

ولا تُسْلَبُ هذه القدسية إلا بسلطانِ الشريعةِ، وبالإجراءات التي تقرّها، وكيان الإنسان المادي والمعنوي حِمًى تحميه الشريعة في حياته وبعد مماته، ومن حقه الترفق والتكريم في التعامل مع جثمانه[3].

2 ـ حق الحرية:

حرية الإنسان مقدسةٌ ـ كحياته سواء ـ وهي الصفةُ الطبيعيةُ الأولى التي بها يولد الإنسان، وقد بينا أنّ من مقاصد الشريعة الحرية، وتحدثنا عن أنواعها، كحرية المعتقدات، وحرية التعبير، وحرية الفكر، وحرية التنقل.

---

(1) حقوق الإنسان، للزحيلي (78).
(2) حقوق الإنسان لمحمد الغزالي ص (174).
(3) المصدر نفسه ص (174).

ويجب توفير الضمانات الكافية لحماية حرية الأفراد، ولا يجوزُ تقييدها أو الحد منها إلا بسلطان الشريعة، وبالإجراءات التي تقرّها، ولا يجوزُ لشعب أن يعتدي على حرية شعب اخر، وللشعب المعتدى عليه أن يرد العدوان، ويسترد حريته بكل السبل الممكنة، قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [الشورى: 41].

وعلى المجتمع الدولي مساندة كلِّ شعب يجاهد من أجل حريته، ويتحمل المسلمون في هذا واجباً، ولا ترخّص فيه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: 41].

3. حق المساواة:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13]. فالناسُ جميعاً سواسية أمام الشريعة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا فضلَ لعربيٍّ على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»[1]، ولا تمايز بين الأفراد في تطبيقها عليهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمّدٍ سرقت لقطعتُ يدها»[2].

والناس كلهم في القيمة الإنسانية سواءٌ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلكم لادم، وادم من تراب»[3]، وإنما يتفاضلون بحسب عملهم، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: 19].

---

(1) مسند الإمام أحمد (411/5).

(2) مسلم، (1315/3).

(3) من خطبة الوداع نقلا عن حقوق الإنسان، للغزالي ص (175).

وكل فكر، وكل تشريع، وكل وضع يسوّغُ التفرقةَ بين الأفراد على أساس الجنس، أو العرق، أو اللون، أو اللغة، أو الدين، هو مصادرةٌ مباشرةٌ لهذا المبدأ الإسلامي العام[1].

ولكل فرد حق في الانتفاع بالموارد المادية للمجتمع من خلال فرصة عمل متكافئة لفرص غيره، قال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: 15]، ولا يجوز التفرقة بين الأفراد كماً وكيفاً، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: 7 . 8].

4 . حق العدالة:

من حق كلِّ فردٍ أن يتحاكم إلى الشريعة، وأن يتحاكم إليها دون سواها، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: 59].

وقال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: 49].

ومن حق الفرد أن يدفع عن نفسه ما يلحقه من ظلم، قال تعالى: ﴿لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ﴾ [النساء: 148]، ومن واجبه أن يدفع الظلم عن غيره بما يملك.

ومن حق الفرد أن يلجأَ إلى سلطةٍ شرعيةٍ تحميه وتنصفه وتدفع عنه، ما لحقه من ضرر أو ظلم، وعلى الحاكم المسلم أن يقيمَ هذه السلطة، ويوفّر لها الضمانات الكفيلة بحيدتها واستقلالها[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ

---

(1) حقوق الإنسان، لمحمد الغزالي ص (175).

(2) احقوق الإنسان، للغزالي (175).

تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: 58]. وقال تعالى: ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾[ص: 26].

5. حق الفرد في محاكمة عادلة:

البراءةُ هي الأصل، وهو مستصحَبٌ ومستمرٌّ حتى مع اتّهام الشخص ما لم تثبتْ إدانتُه أمامَ محكمةٍ عادلةٍ إدانةً نهائيةً، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: 15].

ولا يحكم بتجريم شخص، ولا يعاقب على جرم إلاّ بعد ثبوت ارتكابه له بأدلة لا تقبل المراجعة أمام محكمة ذات طبيعة قضائية كاملة، قال تعالى: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: 6]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم: 28].

ولا يجوز بحال تجاوزُ العقوبةِ التي قدرتها الشريعةُ للجريمةِ، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: 229].

ولا يؤخذُ إنسانٌ بجريرةِ غيره، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: 15]، وكل إنسان مستقل بمسؤوليته عن أفعاله، قال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: 21]. ولا يجوزُ بحال أن تمتدَّ المسألةُ إلى ذويه من أهل وأقارب أو أتباع وأصدقاء، قال تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴾ [يوسف: 79][1].

---

[1] حقوق الإنسان، للغزالي ص (176).




6. حق الحماية من تعسف السلطة:

لكل فردٍ الحق في حمايته من تعسف السلطات معه، ولا يجوزُ مطالبته بتقديم تفسيرٍ لعمل من أعماله، أو وضعٍ من أوضاعه، ولا توجيه إتهام له إلا بناء على قرائن قوية تدل على تورطه فيما يوجه إليه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴾ [الأحزاب: 58].

7. حق الفرد في حماية عرضه وسمعته:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: 11].

عِرضُ الفرد وسمعته حرمةٌ لا يجوزُ انتهاكها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرامٌ كحرمةِ يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»[1].

ويحرم تتبع عوراته، ومحاولة النيل من شخصيته، وكيانه الأدبي. قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: 12].

8. حق اللجوء:

من حقِّ كلِّ مسلم مضطهَدٍ أو مظلومٍ أن يلجأ إلى حيثُ يأمن، في نطاق دار الإسلام، وهو حقٌّ يكفُلُه الإسلامُ لكلِّ مضطهَدٍ، أيّاً كانت جنسيته، أو عقيدته،

---

[1] مسلم، (889).

أو لونه، ويتحمل المسلمون واجب توفير الأمن له متى لجأ إليهم.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: 6].

وبيت الله الحرام ـ بمكة المشرفة ـ هو مثابةٌ وأمنٌ للناس جميعاً، لا يُصَدُّ عنه مسلم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾ [آل عمران: 97]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾ [البقرة: 125][1].

9 ـ حقوق الأقليات:

الأوضاع الدينية للأقليات يحكمُها المبدأُ القرآني العام، قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256]. والأوضاع المدنيةُ والأحوال الشخصية للأقليات، تحكمُها شريعةُ الإسلام إن هم تحاكموا إلينا، قال تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: 42]، فإن لم يتحاكموا إلينا كان عليهم أن يتحاكموا إلى شرائعهم ما دامت تنتمي ـ عندهم ـ لأصل إلهي: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾[المائدة: 43]. وقال تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾[المائدة: 47].

10 ـ حق المشاركة في الحياة العامة:

من حق كل فرد في الأمة أن يعلمَ بما يجري في حياتها، من شؤون تتصل بالمصلحة العامة للجماعة، وعليه أن يُسْهِمَ فيها بقدر ما تتبع له قدرته ومواهبه إعمالاً لمبدأ الشورى، قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 28]، وكل فرد في الأمة أهلٌ

---

[1] حقوق الإنسان، محمد الغزالي ص (177).

لتولي المناصب، والوظائف العامة، متى توافرت فيه شرائطها الشرعية، ولا تسقط هذه الأهليةُ أو تنقصُ تحت أيِّ اعتبار عنصري أو طبقي، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المسلمونَ تتكافأ دماؤهم، وهم يدٌ على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم»[1].

والشورى أساسُ العلاقة بين الحاكم والأمة، ومن حق الأمة أن تختار حكّامها بإرادتها الحرة، تطبيقاً لهذا المبدأ، ولها الحقُّ في محاسبتهم وفي عزلهم إذا حادوا عن الشريعة، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «إنّي وليتُ عليكم، ولستُ بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإنْ أسأتُ فقوّموني، الصدقُ أمانةٌ، والكذبُ خيانةٌ... أطيعوني ما أطعتُ اللهَ ورسولَه، فإذا عصيتُ اللهَ ورسولَه، فلا طاعة لي عليكم»[2].

11 . حق الدعوة والبلاغ:

لكلِّ فردٍ الحقُّ في أن يشاركَ مع غيره أو منفرداً في حياة المجتمع دينياً، واجتماعياً، وثقافياً، وسياسياً... إلخ وأن ينشِأَ من المؤسسات، ويصنعَ من الوسائل ما هو ضروري لممارسة هذا الحق، قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: 108].

ومن حق كلِّ فرد بل ومن واجبه أن يأمرَ بالمعروف، وينهى عن المنكر، وأن يطالِبَ المجتمعَ بإقامة المؤسسات التي تهيئ للأفراد الوفاء بهذه المسؤولية، تعاوناً على البر والتقوى، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

---

[1] صحيح سنن أبي داود، الألباني (525/2).
[2] التاريخ الإسلامي، عبد العزيز الحميدي (28/9) الشورى فريضة إسلامية للمؤلف ص (56).

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[آل عمران: 104][1] ، وحق الإنسان في إنكار المنكر، ورفض الفساد، ومقاومة الظلم البين، والكفر البواح، قرره القرآن بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ ﴾ [هود: 13]. وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: 78 . 79]، كيف لا وقد قيّدَ الله الطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم نفسه بالمعروف، فقال في بيعة النساء: ﴿وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: 12]. وقال على لسان نبيّ الله صالح: ﴿وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء: 151 . 152].

بل إنّ الإسلام قد ارتقى بهذه الأمور من مرتبة الحقوق إلى مرتبة الفرائض والواجبات، لأنّ ما كان من الحقوق يمكِنُ لصاحبه أن يتنازل عنه، أمّا الواجبات المفروضة فلا يجوز التنازلُ عنها[2].

12 . الحقوق الاقتصادية:

الطبيعة ـ بثرواتها جميعاً ـ ملكٌ لله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: 120]، وهي عطاء منه للبشر، منحهم حق الانتفاع بها، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: 13].

وحرم عليهم إفسادها وتدميرها، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

---

[1] حقوق الإنسان، للغزالي ص (179).

[2] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (74).

[الشعراء: 183].

ولا يجوزُ لأحدٍ أن يحرمَ اخر أو يعتدي على حقه في الانتفاع بما في الطبيعة من مصادر الرزق: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: 20].

فلكل إنسان الحق في العمل، والمشي في مناكب الأرض سعياً لكسب رزقه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك: 15].

حتى في يوم الجمعة قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: 10].

وفي الحج قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: 198].

ولكل إنسان الحق في أن يتمتّع بثمرة ما كسب من حلال عن طريق التملك، رجلاً كان أو امرأة: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: 32][1].

13. حق حماية الملكية:

لا يجوزُ انتزاعُ ملكيةٍ نشأت عن كسب حلال إلا للمصلحة العامة، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: 188]. ومع تعويض عادل لصاحبها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أخذَ من الأرضِ شيئاً بغيرِ حقِّه خُسِفَ به يوم القيامة إلى سبع أرضين»[2]. وحرمة الملكية العامة أعظم، وعقوبة الاعتداء عليها أشد، لأنّه عدوان على المجتمع كله، وخيانة للأمة بأسرها، قال رسول الله

[1] كيف نتعامل مع القران العظيم؟ ص (74).
[2] صحيح البخاري، (115/2).

صلى الله عليه وسلم: «مَنِ استعملناه على عملٍ فرزقناه رِزقاً، فما أخذَ بعدَ ذلكَ فهو غلولٌ»[1].

14 . حق العامل:

العملُ شعارٌ رفعه الإسلام لمجتمعه، قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾ [التوبة: 105]. وإذا كان حَقُّ العمل الاتقانُ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ اللهَ يحبُّ إذا عملَ أحدُكم عملاً أن يتقنه»[2].

حق العامل:

أ . أن يوفّى أجره المكافئ لجهده دون حيف عليه، أو مماطلة له، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجفَّ عرقه»[3].

ب . أن توفر له حياة كريمة تتناسب مع ما يبذله من جهد وعرق.

ج . أن يُمْنَحَ ما هو جديرٌ به من تكريم المجتمع له، قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴿فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 105].

د . أن يجد الحماية؛ التي تحول دون غبنه، واستغلال ظروفه[4].

15 . حق الفرد في كفايته من مقومات الحياة:

من حق الفرد أن ينال كفايته من ضرورات الحياة، من طعام، وشراب، وملبس، ومسكن.. ومما يلزم لصحة بدنه من رعاية، وما يلزم لصحة روحه، وعقله من علمٍ،

---

(1) صحيح سنن أبي داود (230/2).

(2) صحيح الجامع الصغير وزيادته، للألباني رقم (1880).

(3) صحيح سنن ابن ماجه، للألباني (59/2).

(4) حقوق الإنسان، للغزالي ص (181).

ومعرفةٍ، وثقافةٍ، في نطاق ما تسمح به موارد الأمة، ويمتد واجبُ الأمة ليشمل ما لا يستطيع الفرد أن يستقلَّ هو بتوفيره لنفسه من ذلك[1]. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله»[2].

قال ابن حزم تعليقاً على هذا الحديث: مَنْ تركه يجوع ويعري وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه[3]. إنَّ الأخوة ليست مجرّد عاطفة، ولكنّها عقد تكافل وتعاون وتازر، وهو عقد طرفه الأساسي الأمة ممثلة في مستويات متراتبة تبدأ بالأسرةِ، حيث أوجب على أفرادها التكافل في الإرث والوصية والنفقة، قال تعالى: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: 75].

ثم الجيرة؛ قال تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء: 36]، ثم يأتي أهلُ الحي، ثم المجتمع كله عن طريق الزكاةِ، وهي فريضةٌ ملزِمة، ثم النفقة التطوعية[4].

16 . تأكيد حقوق الضعفاء:

قرر القرآن الكريم حقوقَ الإنسان عامةً، ولكنّه عُني عنايةً فائقةً بحقوق الضعفاء من بني الإنسان خاصة خيفةَ أن يجورَ عليهم الأقوياء، أو يهملَ أمرَهم الحكامُ والمسؤولون، نجد مظاهر هذه العناية في سور القرآن الكريم مكيّه ومدنيّه، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ [الضحى: 9]، وفي سورة المدثر يتحدّث عن المجرمين في سقر، وأسباب دخولهم فيها، فيقول على لسان أصحاب اليمين حيث يسألونهم:

---

[1] المصدر نفسه ص (182).
[2] البخاري (6951) ومسلم (2580).
[3] المصدر نفسه (109/1).
[4] المحلى، نقلاً عن الحريات، للغنوشي (108/1).

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾، وهاتان السورتان الضحى والمدثر من أوائل ما نزل، وفي سورة الماعون ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ فلم يكتفِ بإيجاب إطعام المسكين، بل أوجبَ الحضَّ على ذلك، والدعوة إليه.

وفي سورة الحاقة، علل القرآن دخول صاحب الشمال الجحيم بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾، فقرن الحضَّ على الإيمان بالله بترك الحض على إطعام المسكين.

وفي سورة الفجر خاطب القرآن المجتمع الجاهلي المتظالم بقوله: ﴿كَلاَّ بَل لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝ ولاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ وأمر بالمحافظة على مال اليتيم إن كان له مال، إذ جعل ذلك من وصاياه العشر في سورة [الأنعام: 152]: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾

وفي سورة النساء وضع القواعدَ للمحافظة على مال اليتيم، وحسن استغلاله، وتنميته بالمعروف في جملة من الآيات انتهت بوعيدٍ شديد، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾

وقد جعل القرآن للمساكين واليتامى إذا كانوا فقراء حظاً في أموال الدولة من الزكاة والفيء وخمس الغنيمة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[التوبة: 60].

وقال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾[الحشر: 7].

وإنما جعلنا الزكاة من أموال الدولة، لأنّ الله أمرَ وليَّ الأمر بأخذها، فقال تعالى:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: 103]. فإذا لم تتول الدولة أخذها، كان على أربابِ الأموال أداؤها إلى الفقراء، يبحثون هم عن الفقراء، ولا يبحث الفقراء عنهم.

كما جعل لهم حقاً في أموال أقاربهم وسائر الأمة بعد ذلك، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخر وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 177]. قال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: 26]. وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: 215].

وأهم من ذلك كله: أنّ القرآن شرع القتال، وسلَّ السيوف للدفاع عن المستضعفين في الأرض، بل حرّض أبلغ التحريض على القتال ذوداً عن حرماتهم، ودرءاً للظلم عنهم، قال تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخرةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: 74. 75].

هذه بعض الحقوق التي قررها القرآن للإنسان ولا نقول أعلنها، إذ كان الأمر أكبر من إعلان، إنّه بلاغ من رب الناس للناس، أسست عليه عقيدة، ونهضت على أساسه ثقافة وتربية، وبني عليه فقه وتشريع، وقامت عليه دولة وأمة، وامتدت به

حضارة وتاريخ[1].

عاشراً. تكوين الأسرة الصالحة:

ومن المقاصد التي هدف إليها القرآن الكريم: تكوينُ الأسرة الصالحة، التي هي ركيزةُ المجتمعِ الصالحِ، ونواةُ الأمة الصالحة[2].

ولا ريب أنّ أساسَ تكوين الأسرة هو الزواجُ الذي يربط بين الرجل والمرأة رباطاً شرعياً وثيقَ العُرا، مكين البيان، مؤسساً على تقوى من الله ورضوان، وقد اعتبر القرآن هذا الزواج ايةً من آيات الله، مثل خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان من تراب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].

فأشار إلى الدعائم الثلاثة التي تقوم عليها الحياة الزوجية، كما يرشدُ إليها القرآن، وهي: السكون، والمودة، والرحمة، ويعني بالسكون: سكون النفس من اضطرابها وثورانها توقاً إلى الجنس الآخر، بالإشباع المشروع في ظلّ مرضاة الله، فلا يعرفُ الإسلامُ الأسرةَ إلا بين رجل وامرأة، منذ الأسرة البشرية الأولى من ادم وزوجه ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35].

لا يعرف ما يدعو إليه المتحللون من الغربيين اليوم من الأسرة الوحيدة الجنس، بحيث يتزوج الرجل الرجل، والمرأة المرأة، وهذا أمرٌ ضدّ الفطرة، وضدّ الأخلاق، وضدّ

---

[1] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (76).

[2] المصدر نفسه ص (86).

الشرائع، وهو للأسف ما حاول مؤتمر السكان في القاهرة «1994م» ومؤتمر المرأة في بكين أن يفرضاه على العالم[1].

وبهذا يقاوم القرآن الكريم نزعتين منحرفتين:

أولهما: نزعة الرهبانية المنافية للفطرة، التي تحرّم الزواجَ، وتنظر إلى الغريزة الجنسية وكأنها رجسٌ من عمل الشيطان، وتنفر من ظل المرأة، ولو كانت أختاً أو أماً، لأنّها أُحبولةُ الشيطان.

وثانيها: نزعة الإباحية التي تطلق العنانَ للغريزة، بلا ضابط ولا رابط، وتنادي بحرية الاستمتاع الجنسي بين الرجل والمرأة، دون ارتباط بمسؤولية شرعية، تتكون من خلالها حياة زوجية ذات هدف، تنشأ منها أسرة مترابطة، تقوم على أمومة حانية، وأبوة راعية، وبنوة بارّة، وأخوة عاطفة، وتتربى في ظلها مشاعرُ المحبة، وعواطف الإيثار والتعاون[2].

وقد استهدف الشارع عِدّةَ مقاصد من تكوين الأسرة، منها:

1. حفظُ النسل:

وتحقيقاً لهذا المقَصد قصرَ الإسلامُ الزواجَ المشروع على ما يكون بين ذكر وأنثى، وحرّم كلَّ صور اللقاء خارجَ الزواجِ المشروع، كما حرّم العلاقات الشاذة التي لا تؤدي إلى الإنجاب، وفي هذا تعميرٌ للأرض، وتواصلٌ للأجيال، قال الله جل شأنه: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ **[هود: 61]**[3].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ

---

[1] المصدر نفسه ص (86).

[2] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (87).

[3] ميثاق الأسرة في الإسلام، اللجنة العالمية للمرأة والطفل ص (132).

وَحَفَدَةً﴾ [النحل: 72].

وكان من دعاء عباد الرحمن: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: 74].

وقال الخليل إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: 100. 101].

وقال زكريا عليه السلام: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم: 5. 6].

فجاء الجواب الإلهي: ﴿يَازَكَرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 7].

2. تحقيق السكن والمودة والرحمة:

وشرع الله أحكاماً واداباً للمعاشرة بالمعروف بين الزوجين، حتى لا تنحصرَ العلاقة بين الزوجين في صورة جسدية بحتة، قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 19].

والمعروف هنا: ما يقره العرف السليم، واعتاده أهل الاعتدال والاستقامة من الناس، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة 187]، وإنما عبر عن هذه العلاقة باللباس، لما توحي به هذه الكلمةُ من الزينة والستر واللصوق والدفء، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 195]. ومعنى : أنّ المرأة من ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾، والرجل من المرأة، فلا خصومةَ ولا تناقضَ، بل

تكاملٌ وتناسقٌ وتعاونٌ[1].

3 . حفظ النسب:

ولهذا المقصد أبطل الله تعالى نظامَ التبني، وأمرنا بإرجاع نسب الأولاد بالتبني إلى أنسابهم الحقيقية، قال الله جل شأنه: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ **[الأحزاب: 4 . 5]**.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيّما رجلٍ دعا إلى غير والديه، أو تولّى غير مواليه الذين أعتقوه، فإنّ عليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين إلى يوم القيامة، لا يُقْبَلُ منه صرف[2] ولا عدلٌ»[3].

ولأجل حفظ النسب حرَّم الإسلام أيضاً الزنى، وشرعت الأحكام الخاصة بالعدة، وعدم كتم ما في الأرحام، وإثبات النسب وجحده، وهي أحكامٌ لها تفصيلها في مظانّها من المراجع الفقهية[4].

4 . الإحصان:

يوفّر الزواجُ الشرعيُّ صونَ العفاف، ويحقِّقُ الإحصان، ويحفظ الأعراض، ويسدُّ ذرائع الفساد الجنسي بالقضاء على فوضى الإباحية والانحلال[5]، وقد اختصّ الإسلامُ بمراعاته للفطرة البشرية، وقبولهم بواقعه، ومحاولة تهذيبها، والارتقاء بها، لا كبتها

---

(1) ميثاق الأسرة في الإسلام ص (135).

(2) العدل: التوبة أو الفدية، حديث صحيح رواه أحمد والدارمي.

(3) الصرف: الفريضة أو النافلة، وقيل: التوبة.

(4) ميثاق الأسرة في الإسلام ص (137).

(5) المصدر نفسه ص (137).

وقمعها، قال الله جل شأنه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: 14]، وهي شهواتٌ مستحبّةٌ مستلذّة، لكنّها يجب أن توضع في مكانها لا تتعداها، ولا تطغى على ما هو أكرم في الحياة وأعلى[1].

والقرآن الكريم لا يضع أي قيد على الاستمتاع بين المرء وزوجه: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة: 223]، ما دام الاستمتاع في موضع الحرث، وفي غير زمن الأذى، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222][2].

5 . حفظ التدين في الأسرة:

الأسرةُ هي محضن الأفراد، لا برعاية أجسادهم فقط، بل بغرس القيم الدينية والخلقية في نفوسهم، وتبدأ مسؤولية الأسرة في هذا المجال قبل تكوّن الجنين، بحسن اختيار كلٍّ من الزوجين إلى الآخر، وأولوية المعيار الديني والخلقي في هذا الاختيار[3]. قال تعالى: ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 221].

---

[1] المصدر نفسه ص (138).

[2] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (87).

[3] .ميثاق الأسرة في الإسلام ص (138).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا خطبَ إليكم مَنْ ترضونَ دينَه وخُلُقَهُ فزوّجوه، إلاّ تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرضِ وفسادٌ عريضٌ»[1].

وتستمر مسؤوليةُ الأسرةِ بتعليم العقيدة والعبادة والأخلاق لأفراد الأسرة، وتدريبهم على ممارستها، ومتابعة ذلك حتى بلوغ الأطفال رشدهم، واستقلالهم بالمسؤولية الدينية عن تصرفاتهم[2]، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ **[طه 132]**.

وقال جل شأنه عن النبي إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ **[مريم: 55]**.

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ **[التحريم: 6]**.

الحادي عشر . إنصاف المرأة وتحريرها من ظلم الجاهلية:

من أهم ما جاء به القرآن الكريم هنا إنصافُ المرأة وتحريرُها من ظلم الجاهلية وظلامُها، ومن تحكّم الرجل في مصيرها بغير حق، فكرّم القرآن المرأة، وأعطاها حقوقها بوصفها إنساناً، وكرّمها بوصفها أنثى، وكرّمها بوصفها بنتاً، وكرّمها بوصفها زوجة، وكرّمها أماً، وكرّمها بوصفها عضواً في المجتمع[3].

لقد جاء الإسلامُ وبعضُ الناس ينكرون إنسانية المرأة، واخرون يرتابون فيها، وغيرُهم يعترف بإنسانيتها، ولكنّه يعتبرها مخلوقاً خُلِقَ لخدمة الرجل، فكان من فضل الإسلام

---

(1) حديث حسن رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم والبيهقي، ميثاق الأسرة في الإسلام ص (154).

(2) المصدر نفسه ص (138).

(3) كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (89).

أنه كرّمَ المرأة، وأكّد إنسانيتها، وأهليتها للتكليف والمسؤولية والجزاء ودخول الجنة، واعتبرها إنساناً كريماً له كل ما للرجل من حقوق إنسانية؛ لأنّهما فرعان من شجرة واحدة، وأخوان ولدهما أب واحد هو ادم، وأم واحدة هي حواء، فهما متساويان في أصل النشأة، متساويان في الخصائص الإنسانية العامة، متساويان في التكاليف والمسؤولية، متساويان في الجزاء والمصير[1]، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

وإذا كان الناس ـ كل الناس ـ رجالاً ونساءً، خلقهم ربُّهم من نفس واحدة، وجعل من هذه النفس زوجاً تكملها وتكتمل بها، كما قال في آية أخرى: ﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ [الأعراف: 2]، وبث في هذه الأسرة الواحدة رجالاً كثيراً ونساءً، كلهم عبادٌ لربٍ واحد، وأولاد لأم واحدة وأب واحد، فالأخوة تجمعهم، ولهذا أمرتُ الآية الناسَ بتقوى الله، ورعاية الرحم الواشجة بينهم: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ [النساء: 1].

والرجل ـ بهذا النص ـ أخُ المرأة، والمرأة شقيقة الرجل، وفي هذا قال الرسول ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال»[2].

1 ـ في مساواة المرأة للرجل في التكليف والتدين والعبادة:

يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ

---

(1) ملامح المجتمع المسلم، د. يوسف القرضاوي ص (321).

(2) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي عن عائشة. كما في صحيح الجامع الصغير (2333).

وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35].

2 . في التكاليف الدينية الاجتماعية الأساسية:

يسوّي القرآن بين الجنسين بقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 71].

3 . وفي قصة آدم توجّه التكليف الإلهي إليه وإلى زوجه على السواء:

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 35]. والجديد في هذه القصة . كما ذكرها القرآن . أنَّها نسبت الإغواء إلى الشيطان لا إلى حواء كما فعلت التوراة المحرفة: ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه﴾ [البقرة: 36].

ولم تنفرد حواء بالأكل من الشجرة ولا كانت البادئة، بل كان الخطأ منهما معاً، كما كان الندمُ والتوبةُ منهما جميعاً: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: 83].

بل في بعض الآيات نسبةُ الخطأ إلى ادمَ بالذات وبالأصالة: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه: 115]، ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَال ياآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى ﴾ [طه: 12]. وقال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ [طه: 121].

كما نسب إليه التوبة وحده أيضاً: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ [طه: 122]،

ممّا يفيدُ أنّه الأصل في المعصيةِ وامرأتُه تبعٌ له.

ومهما يكن الأمر فإنَّ خطيئة حواء لا يحمل تبعتها إلا هي، وبناتها بريئات من إثمها، ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الزمر: 7] ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: 134].

4. وفي مساواة المرأة للرجل في الجزاء:

ودخولُ الجنّة يقول الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 195]، فنصُّ القرآن في صراحة على أنَّ الأعمال لا تضيع عند الله، سواء أكان العامل ذكراً أم أنثى، فالجميعُ بعضهم من بعض، من طينة واحدة، وطبيعة واحدة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[النحل: 97]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: 124].

5. وفي الحقوق المالية للمرأة:

أبطل الإسلام ما كان عليه كثير من الأمم ـ عرباً وعجماً ـ من حرمان النساء من التملك والميراث، أو التضييق عليهنّ في التصرف فيما يملكن، واستبداد الأزواج بأموال المتزوّجات منهنّ، فأثبت لهن حق التملّك بأنواعه وفروعه، وحق التصرف بأنواعه المشروعة، فشرع الوصية والإرث لهنّ كالرجال، وأعطاهنَّ حقّ البيع والشراء والإجارة والهبة والإعارة، والوقف والصدقة والكفالة والحوالة والرهن وغير ذلك من العقود والأعمال، ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها، كالدفاع عن نفسها بالتقاضي

وغيره من الأعمال المشروعة[1].

6 . المرأة باعتبارها أماً:

لا يعرفُ التاريخ ديناً ولا نظاماً كرَّم المرأة باعتبارها أماً، وأعلى من مكانتها، مثل الإسلام، لقد أكَّدَ الوصيةَ بها، وجعلها تالية للوصية بتوحيد الله وعبادته، وجعل بِرّها من أصول الفضائل، كما جعل حقّها أوكد من حق الأب لما تحملته من مشَاق الحمل والوضع والإرضاع والتربية، وهذا ما يقرره القرآن، ويكرره في أكثر من سورة، ليثبته في أذهان الأبناء ونفوسهم، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: 14]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: 15][2].

ومن توجيهات القرآن الكريم أنّه وضع أمام المؤمنين والمؤمنات أمثلة وقدوة حسنة لأمهاتٍ صالحاتٍ، كان لهنَّ أثرٌ ومكانةٌ في تاريخ الإيمان.

- فأم موسى تستجيبُ إلى وحي الله وإلهامه، وتُلقي ولدها وفلذة كبدها في اليمّ، مطمئنة إلى وعد ربها، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[القصص: 7].
- وأم مريم التي نذرت ما في بطنها محرراً لله، خالصاً من كل شرك أو عبودية لغيره، داعية الله أن يتقبل منها نذرَها، قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ

---

[1] ملامح المجتمع المسلم ص (324)، وانظر الإسلام والمرأة للأستاذ سعيد الأفغاني ص (72).

[2] ملامح المجتمع المسلم ص (328).

الْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران: 35]. فلما كان المولودُ أنثى على غير ما كانت تتوقع، لم يمنعها ذلك من الوفاء بنذرها، سائلة الله أن يحفظها من كل سوء، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: 36].

- ومريم ابنة عمران أم المسيح عيسى، جعلها القرآن ايةً في الطهر، والقنوت لله، والتصديق بكلماته:

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [التحريم: 12][1].

7. المرأة باعتبارها بنتاً:

كان العرب في الجاهلية يتشاءمون بميلاد البنات، ويضيقون به، حتى قال أحد الاباء . وقد بشر بأنَّ زوجه ولدت أنثى :. واللهِ ما هي بنعم الولد، نصرُها بكاءٌ، وبرُّها سرقةٌ. يريد أنها لا تستطيعُ أن تنصر أباها وأهلها إلاّ بالصراخِ والبكاءِ، لا بالقتال والسلاح، ولا أنْ تبرَّهم إلا بأن تأخذ من مالِ زوجها لأهلها.

وكانت التقاليد المتوارثة عندهم تبيحُ للأب أن يئدَ ابنته . يدفنها حية . خشيةً من فقرٍ قد يقع، أو من عارٍ قد تجلبه على قومها حين تكبر، وفي ذلك يقول القرآن منكراً عليهم، ومقرّعاً لهم: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: 8. 9].

ويصفُ حالَ الاباء عند ولادة البنات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: 58. 59].

وكانت بعضُ الشرائع القديمة تعطي الأبَ الحق في بيع ابنته إذا شاء، وبعضها الآخر

---

[1] ملامح المجتمع المسلم، ص (331).

ـ كشريعة حمورابي ـ تجيزُ له أن يسلمَها إلى رجلٍ اخرَ ليقتلها.

جاء الإسلامُ فاعتبر البنتَ كالابن ـ هبة من الله ونعمة ـ يهبها لمن يشاء من عباده، قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 49 ـ 50].

وبيّنَ القرآن الكريم في قصصه أنَّ بعض البنات قد تكونُ أعظمَ أثراً، وأخلد ذكراً، من كثيرٍ من الأبناء الذكور، كما في قصة مريم ابنة عمران التي اصطفاها الله وطهرها، واصطفاها على نساء العالمين، وقد كانت أمها عندما حملت بها تتمنّى أن تكون ذكراً يخدِمُ الهيكل، ويكون من الصالحين[1]، قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَناً﴾ [آل عمران: 35 ـ 37].

وجعل رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم الجنةَ جزاءَ كلِّ أبٍ يُحْسِنُ صحبةَ بناته، ويحرص على تربيتهن وحسن تأديبهن، ورعايةِ حقّ الله فيهن، حتى يبلُغْنَ، أو يموت عنهن، وجعل منزلته بجواره صلى الله عليه وسلم في دار النعيم المقيم، قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ كانَ له ثلاثُ بناتٍ، فصبر على لأوائهنَّ وضرّائهنَّ وسرّائهنَّ، أدخله الله الجنة برحمتِهِ إيّاهنّ»، فقال رجل: واثنتان يا رسول الله؟ قال: «واثنتان». قال رجل: يا رسول الله، وواحدة؟ قال: «وواحدة»[2].

---

[1] ملامح المجتمع المسلم ص (232–233) الإسلام والمرأة لسعيد الأفغاني ص (51).
[2] رواه الحاكم وصحح إسناده ووافقه الذهبي (176/4).

لم تعدْ ولادةُ البنتِ عبئاً يُخاف منه، وطالعُ نحس يُتطيّر به، بل نعمةٌ تُشْكَرُ ورحمةٌ تُرجى، وتُطلب لما وراءها من فضل الله تعالى، وجزيل مثوبته، وبهذا أبطل الإسلام عادة الوأدِ إلى الأبد، وأصبحَ للبنتِ في قلب أبيها مكان عظيم[1].

8 ـ المرأة باعتبارها زوجة:

كانت بعض الديانات والمذاهب تعتبِرُ المرأةَ رجساً من عمل الشيطان، يجب الفرار منه، واللجوء إلى حياة التبتل والرهبنة، وبعضُها الآخر كان يعتبر الزوجة مجرّد الةٍ لمتاع الرجل، أو طاهٍ لطعامه، أو خادم لمنزله، فجاء الإسلام يعلِنُ بطلان الرهبانية، وينهى عن التبتل، ويحثّ على الزواج، ويعتبر الزوجية اية من آيات الله في الكون، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: 21].

وقرّرَ الإسلام للزوجة حقوقاً على زوجها، ولم يجعلْها مجّرَد حبر على ورق، بل جعل عليها أكثرَ من حافظٍ ورقيبٍ، من إيمان المسلم وتقواه أولاً، ومن ضمير المجتمع ويقظته ثانياً، ومن حكم الشرع وإلزامه ثالثاً.

وأول هذه الحقوق: الصداق: الذي أوجبه الله للمرأة على الرجل إشعاراً منه برغبته فيها، وإرادته لها، قال تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ [النساء: 4].

فأينَ هذا من المرأةِ التي نجدُها في مدنيات أخرى، فتدفع هي للرجل بعض مالها، مع أنَّ فطرة الله جعلت المرأةَ مطلوبةً لا طالبة؟

وثاني هذه الحقوق: النفقة، فالرجل مكلّفٌ بتوفير المأكل والملبس والمسكن

[1] ملامح المجتمع المسلم، د.يوسف القرضاوي ص (334).

بالمعروف، والمعروف: هو ما يتعارف عليه أهل الدين والفضل من الناس بلا إسراف ولا تقتير، قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: 7].

وثالث الحقوق: المعاشرة بالمعروف، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 19]. وهو حق جامع يتضمن إحسان المعاملة في كلِّ علاقة بين المرء وزوجه، من حسن الخلق، ولين الجانب، وطيب الكلام، وبشاشة الوجه، وتطييب نفسها بالممازحة، والترفيه عنها.

وفي مقابل هذه الحقوق أوجبَ عليها طاعةَ الزوج في غير معصيةٍ، والمحافظة على ماله، فلا تنفِقُ منه إلا بإذنه، وعلى بيته، فلا تدخِلُ فيه أحداً إلا برضاه، ولو كان من أهلها.

وهذه الواجبات ليست كثيرةً ولا ظالمةً في مقابل ما على الرجل من حقوق، فمن المقرر أنَّ كل حق يقابله واجب، ومن عدل الإسلام أنه لم يجعل الواجبات على المرأة وحدَها، ولا على الرجل وحده، بل قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 228]. فللنساء من الحقوق مثل ما عليهنّ من الواجبات.

ومن جميل ما يروى أنّ ابن عباس رضي الله عنه وقف أمام المراة يصلِحُ هيئته، ويُعَدِّلُ من زينته، فلما سئل في ذلك قال: أتزيّنُ لامرأتي كما تتزيّنُ لي، ثم تلا الاية الكريمة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 228]. وهذا من عميق فقه الصحابة للقرآن الكريم[1].

ولم يهدر الإسلامُ شخصية المرأة بزوجها، ولم يذبها في شخصية زوجها، كما هو

---

[1] ملامح المجتمع المسلم، ص(340). وانظر الإسلام والمرأة، للأستاذ سعيد الأفغاني ص (72).

الشأن في التقاليد الغربية التي تجعل المرأة تابعة للرجل، فلا تُعرف باسمها ونسبها ولقبها العائلي، بل بأنها زوجة فلان.

أما الإسلام فقد أبقى للمرأة شخصيتها المستقلة المتميزة، ولهذا عرفنا زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم بأسمائهنّ وأنسابهنّ، فخديجة بنت خويلد، وعائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وميمونة بنت الحارث، وصفية بنت حُيَي، وكان أبوها يهودياً محارباً للرسول صلى الله عليه وسلم.

كما أنّ شخصيتها المدنية لا تنقص بالزواج، ولا تفقد أهليتها للعقود والمعاملات وسائر التصرفات، فلها أن تبيع وتشتري، وتؤجر أملاكها، وتستأجر، وتهب من مالها وتتصدق وتوكل وتخاصم.

وهذا أمرٌ لم تصل إليه المرأة الغربية إلاّ حديثاً، ولازالت في بعضِ البلاد مقيَّدةً إلى حدٍّ ما بإرادة الزوج[1].

9 . المحافظة على أنوثة المرأة:

الإسلامُ يحافظ على أنوثة المرأة، حتى تظلَّ ينبوعاً لعواطف الحنان والرقة والجمال، ولهذا أحلّ لها بعضَ ما حُرِّم على الرجال، بما تقتضيه طبيعة الأنثى ووظيفتها، كالتحلّي بالذهب، ولبس الحرير الخالص، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ هذين حرامٌ على ذكور أمتي، حل لإناثهم»[2].

كما أنّه حرّم عليها كل ما يجافي هذه الأنوثة، من التشبه بالرجال في الزي والحركة والسلوك وغيرها، فنهى أن تلبَسَ المرأةُ لبسة الرجل، كما نهى الرجل أن يلبَسَ لبسة

---

[1] ملامح المجتمع المسلم، ص(341). وانظر الإسلام والمرأة، للأستاذ سعيد الأفغاني ص (72).

[2] سنن ابن ماجه رقم (3595).

المرأة، ولعن المتشبّهات من النساء بالرجال، مثلما لعَن المتشبهين من الرجال بالنساء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثةٌ لا يدخلون الجنة، ولا ينظرُ اللهُ إليهم يومَ القيامةِ: العاقُّ لوالديه، والمرأةُ المترجلةُ[1]، والدّيوثُ»[2].

والإسلام يحمي هذه الأنوثة، ويرعي ضعفها، فيجعلها أبداً في ظلِّ رجل مكفولةَ النفقات، مكفيةَ الحاجات، فهي في كنف أبيها أو زوجها أو أولادها أو إخوتها يجب عليهم نفقتها، وفق شريعة الإسلام، فلا تضطرها الحاجة إلى الخوض في لجج الحياة وصراعها، ومزاحمة الرجال بالمناكب.

والإسلامُ يحافِظُ على خُلُقها وحيائها، ويحرص على سمعتها وكرامتها، ويصون عفافها من خواطر السوء، وألسنة السوء؛ فضلاً عن أيدي السوء أن تمتدَّ إليها: ولهذا يوجِبُ الإسلام عليها:

أ ـ الغضُّ من بصرها والمحافظة على عفتها ونظافتها:

قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: 31].

ب ـ الاحتشام والتستر في لباسها وزينتها دون إعناتٍ لها، ولا تضييقٍ عليها:

قال تعالى: ﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ [النور: 31].

ج ـ ألا تبدي زينتها الخفية ـ كالشعر والعنق والنحر والذراعين والساقين ـ إلا لزوجها ومحارمها الذين يشقُّ عليها أن تستر منهم استتارها من الأجانب:

قال تعالى: ﴿ولاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ

---

(1) المترجلة: المتشبهة بالرجال.

(2) مسند أحمد رقم (1680)، وإسناده صحيح، والديوث: الذي لا يبالي من دخل على أهله.

أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: 31].

د ـ أن تتوقر في مشيها وكلامها: قال تعالى: ﴿وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: 31]. وقال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب: 32] فليست ممنوعة من الكلام، وليس صوتها عورة، بل هي مأمورةٌ، أن تقول قولاً معروفاً[1].

هـ أن تتجنب كل ما يجذب الانتباه إليها، ويغري بها، من تبرج الجاهلية الأولى أو الأخيرة.

فهذا ليس من خلق المرأة العفيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيُّما امرأةٍ استعطرتْ، ثم خرجتْ من بيتِهَا ليشمَّ الناسُ ريحها فهي زانية»[2].

و ـ أن تمتنع عن الخلوة بأي رجلٍ ليس زوجها ولا محرْماً لها:

صوناً لنفسها ونفسه من هواجس الإثم، ولسمعتها من ألسنة السوء، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يخلونَّ رجلٌ بامرأةٍ إلا مع ذي محرم»[3].

ز ـ ألا تختلط بمجتمع الرجال الأجانب إلا لحاجة داعية، ومصلحة معتبرة، وبالقدر اللازم:

كالصلاة في المسجد، وطلب العلم، والتعاون على البر والتقوى، بحيث لا تُحْرَمُ المرأةُ من المشاركة في خدمة مجتمعها، ولا تنسى الحدود الشرعية في لقاء الرجال.

---

[1] ملامح المجتمع المسلم (366-367).

[2] سنن الترمذي رقم (2786) حديث صحيح.

[3] البخاري رقم (1088).

إنَّ الإسلامَ بهذه الأحكام يحمي أنوثةَ المرأة من أنياب المفترسين من ناحية، ويحفظ عليها حياءها وعفافها بالبعد عن عوامل الانحراف والتضليل من ناحية ثانية، ويصونُ عرضها من ألسنة المفترين والمرجفين من ناحية ثالثة، وهو ـ مع هذا كله ـ يحافِظُ على نفسها وأعصابها من التوتر والقلق، ومن الهزّات والاضطرابات، نتيجة لجموح الخيال، وانشغال القلب، وتوزع عواطفه بين شتى المثيرات والمهيّجات وهو أيضاً ـ بهذا الأحكام والتشريعات ـ يحمي الرجل من عوامل الانحراف والقلق، ويحمي المجتمع كلّه من عوامل السقوط والانحلال[1].

الثاني عشر ـ بناء الأمة الشهيدة على الناس:

من أهداف الإسلام الأساسية: تكوين أُمةٍ متميزة، ولقد استطاعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم تحقيق ذلك وفق رؤية واضحة، مبنية على عقيدة راسخة، وشريعة حاكمة، وتخلّص العربُ من الفرقة، والشتات، والعصبيات القبلية، والنعرات الجاهلية، وانتقلوا نقلةً كبيرةً في عالم الفكر، وعالم الشعور، وعالم الواقع، وأصبحت تلك القبائل أمةً واحدةً، تعبد إلهاً واحداً، وتخضع لكتاب واحدٍ، وتنقاد لزعامة الرسول صلى الله عليه وسلم المبيّن والموضح لهم التعاليم الإلهية، وأصبحت هذه الأمةُ لا تقومُ على رابطة عرقية ولا لونية ولا إقليمية ولا طبقية، بل هي أمةُ عقيدةٍ ورسالةٍ قبل كل شيء.

هي أمة الإسلام أو أمة المسلمين كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[الحج:

---

[1] ملامح المجتمع المسلم (368).





78][1][2].

فقد أخرج الله الأمة المسلمة ـ التي قادها النبيُّ صلى الله عليه وسلم ـ لتؤدي دوراً كونياً كبيراً، ولتحمل منهجاً إلهياً عظيماً، ولتنشىء في الأرض واقعاً فريداً، ونظاماً جديداً، وهذا الدور الكبير يقتضي التجرد والعطاء، والتميز والتماسك، وبتعبير مختصر يقتضي أن تكونَ طبيعةُ هذه الأمة من العظمة؛ بحيث تسامي عظمة الدور الذي قدّره الله لها في هذه الحياة، وتسامي المكانة التي أعدها الله لها في الآخرة[3].

ولم تنل هذه الأمةُ هذه المكانة السامقة بين الأمم مصادفةً ولا جزافاً ولا محاباة، فالله سبحانه وتعالى منزَّه عن أن يكون في ملكه شيء من ذلك، فكل شيء عنده بمقدار، وهو يخلقُ ما يشاء ويختار، وهو سبحانه عندما أخبر أنَّ هذه الأمة خيرُ أمة أخرجت للناس، بين وجه ذلك وعلته في الاية نفسها، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]، فبهذه الأمور الثلاثة العظيمة القدر كانت هذه الأمةُ خيرَ أمة أخرجت للناس.

على أنَّ هذه الأمور ليست هي كل ما كانت به هذه الأمة خير أمة؛ إذ هناك أمورٌ وخلالٌ كثيرة أهلت هذه الأمة لهذه الخيرية، ولكنّ هذه الأمور الثلاثة أهمها وأعظمها، إذ لا تدوم ولا تستمرّ هذه الخيرية، ولا تحفظ إلا بإقامتها وأدائها، فإن فقدت هذه الأمورَ في جيل من الأجيال هذه الأمةُ لم تكن حَرِيَّةً بهذه الخيرية التي

[1] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (97).
[2] في ظلال القرآن (129/1).
[3] المصدر نفسه (171/1).

حظيت بها[1].

أوصاف الأمة الإسلامية في القرآن الكريم:

أبرزُ ما يميّزُ هذه الأمة عن غيرها من الأمم أوصاف أربعة:

1 . الربانية:

ربانية المصدر، وربانية الوجهة، فهي أمةٌ أنشأها وحي الله تعالى، وتعهدتها تعاليمه وأحكامه، وهي من اكتمل لها دينها، وتمّت به نعمة الله عليها، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾ **[المائدة: 3]**.

فإنّ تعالى هو صانع هذه الأمة، ولهذا نجده يقول في القرآن الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ **[البقرة: 143]**، فهذا التعبير يفيد أنّ الله هو جاعل هذه ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾، ومستخدمها، وصانعها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ **[آل عمران: 110]**، فتعبير ﴿أُخْرِجَتْ﴾ يدل على أنّ هناك مُخرِجاً أخرج هذه الأمة، فهي لم تظهر اعتباطاً، ولم تكن نباتاً برياً ينبت وحده دون أن يزرعه زارع، بل هو نباتٌ مقصودٌ متعهّد بالعناية والرعاية، والذي أخرج هذه الأمة، وزرعها، وهيأها لرسالتها هو الله جل شأنه.

فهي أمةٌ مصدرها رباني، ووجهتُها ربانية كذلك؛ لأنّها تعيش لله، ولعبادة الله، ولتحقيق منهج الله في أرض الله، فهي من الله وإلى الله، كما قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لاَ شَرِيكَ لَهُ ﴾ **[الأنعام: 162 . 163]**.

---

[1] الوسطية في القرآن الكريم، للمؤلف ص (71).

2. الوسطية:

الوسطية التي تؤهّلُ هذه الأمة للشهادة على الناس، وتبوئها مكان الأستاذية للبشرية، وفيها جاءت الاية الكريمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143].

ومن وسطية شاملة جامعة، وسطية في الاعتقاد والتصور، ووسطية في الشعائر والتعبد، ووسطية في الأخلاق والسلوك، ووسطية في النظم والتشريع، ووسطية في الأفكار والمشاعر، ووسطية بين الروحية والمادية، بين المثالية والواقعية، بين العقلانية والوجدانية، بين الفردية والجماعية، بين الثبات والتطور[1].

إنّها الأمةُ التي تمثل «الصراط المستقيم» بين السبل المتعرجة والملتوية، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، لا صراط المغضوب عليهم ولا الضالين.

3. الدعوة:

هي أمةُ دعوةٍ ورسالةٍ، وليست أمة منكفئة عن نفسها تحتكر رسالة الحقّ والخير والهداية لذاتها، ولا تعمل على نشرها في الناس، بل الدعوةُ فريضةٌ عليها، والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإيمان بالله أساسُ تفضيلها على كل الأمم.

إنَّ رسالةَ الإسلامِ رسالةٌ عالميةٌ، رسالةٌ لكلِّ الأجناس، ولكلِّ الألوان، ولكل الأقاليم، ولكل الشعوب، ولكل اللغات. قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158].

---

[1] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (98).

4 . الوحدة:

الأمةُ التي يريدها الإسلام أمةٌ الوحدة، وإن تكونت من عروق وألوان وطبقات، فقد صهرها الإسلام جميعاً في بوتقته، وأذاب الفوارق بينها، وربطها بالعروة الوثقى لا انفصام لها. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: 92]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: 52].

ولهذا لا يجوزُ أن نقول في تعبيرنا: الأمم الإسلامية، بل الأمة الإسلامية، فهي أمة واحدة كما أمر الله، وليست أمماً متفرقة كما أراد الاستعمار، وهي أمة ذات شعوب، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: 13]، فلا بأس أن نقول: «الشعوب الإسلامية» بدل «الأمم الإسلامية»[1].

ومن المفيد هنا أنْ ننبِّه على قضية ذاتِ شأن، وهي: أنَّ الإيمان بالأمة المؤسسة على عقيدة الإسلام وأخوة الإيمان، والتي تضمُّ جميع المسلمين في رحابها حيث كانوا؛ لا ينفي أن هناك خصوصيات معينة لكلِّ قوم يعتزون بها، ويحافظون عليها، ولا يُفرِّطون فيها، ولا مانعَ من ذلك إذا لم تتحول إلى عصبية عرقية تقاوم إخوة الإسلام، أو إلى نزعة أنانية انفصالية تهدِّدُ وحدة دولة الإسلام.

ولقد ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده القبائل تقاتل تحت راياتها الخاصة في ظل القيادة الإسلامية العامة، ليكون ذلك مصدراً إضافياً لحماسهم وإقدامهم؛ حتّى لا يجلبوا العار على أقوامهم وعشائرهم.

إنّ حبَّ الرجل لقومه وعشيرته، ورغبته في جلب الخير لهم، ودفع الشرِّ عنهم نزعةٌ

---

[1] كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ ص (101).

فطريةٌ لا غبار عليها، ولا خطرَ فيها، كما لا خطرَ في حبه لأسرته، واهتمامه بها.

والخطر إنما يتمثّل فيما إذا وقفوا موقفاً معادياً للإسلام، وحادّوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، هنا تحرمُ المودّة والموالاة، ولو كانت لأقرب الناس للإنسان، كأمه وأبيه وبناته وبنيه وزوجه وأخيه، قال تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخر يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: 22]. وقال تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 23 ـ 24].

لا بأس أن يحبَّ الرجلُ أسرته، ويحبَّ قومه وعشيرته وشعبه، ولكن إذا تعارض ذلك مع حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم؛ فإن حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أغلى من كلِّ شيءٍ، هنا يتغنى المسلم بقول القائل:

أبي الإســـلامُ لا أبَ لِي سِـــوَاهُ ... إذا افتخـــروا بقـــيسٍ أو تمـــيمِ[1]

الثالث عشر ـ السماحة:

السماحة أول أوصاف الشريعة، وأكبر مقاصدها، والسماحة: سهولة المعاملة فيما اعتاد الناس فيه المشادّة، فهي وسط بين الشدة والتساهل، ولفظ السماحة هو أرشقُ

---

[1] كيف نتعامل مع القران العظيم؟ ص(102).

لفظ يدل على هذا المعنى، يقال: سمح فلان؛ إذا جاء بمالٍ له. قال المقنّعُ الكندي:

لَيسَ العطاءُ مِن الفضولِ سماحةً   حتى تجودَ وما لديك قليلُ

فالسماحةُ أخصُّ من الجود، ولهذا قابلها زيادُ الأعجم بالندى في قوله:

إنَّ السماحةَ والمروءةَ والندى   في قُبَّةٍ ضُرِبَتْ على ابنِ الحَشْرَجِ

فتدلُّ السماحةُ على خلق الجود والبذل، وفي الحديث عن جَابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رحمَ اللهُ رَجُلاً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى»[1].

فالسماحة من أكبر صفات الإسلام الكائنة وسطاً بين طرفي إفراط وتفريط، وفي الحديث الصحيح عن ابن عبّاس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحبُّ الدينِ إلى اللهِ الحنيفيةُ السمحةُ»[2].

فرجع معنى السماحة إلى التيسير المعتدل، وهو معنى اليسر الموصوف به الإسلام، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ **[البقرة: 185]**.

واستقراء الشريعة يدل على هذا الأصل في تشريع الإسلام، فليس الاستدلال عليه بمجرد هذه الاية، أو هذا الخبر، حتى يقول معترضٌ: إنَّ الأصول القطعية لا تثبتُ بالظواهر، لأنَّ أدلةَ هذا الأصل كثيرةٌ منتشرةٌ، وكثرة الظواهر تفيد القطعَ، ولهذا قال الإمام مالك بن أنس في مواضعَ من (الموطأ): ودينُ اللهِ يسرٌ، وحسبُكَ بهذه الكلمة من ذلك الإمام، فإنّه ما قالها حتى استخلصها من استقراء الشريعة، إنّ السماحةَ أكملُ وصفٍ لاطمئنان النفس، وأعونُ على قبول الهدى والإرشاد[3]، قال تعالى:

---

[1] البخاري رقم (2076).

[2] البخاري، الأدب المفرد رقم (188).

[3] أصول النظام الاجتماعي، محمد الطاهر بن عاشور ص(51).

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159].

إنَّ حكمةَ السماحة في الشريعة أنَّ الله جعل هذه الشريعة دين الفطرة، وأمور الفطرة راجعةٌ إلى الجبلة، فهي كائنة في النفوس، سهل عليها قبولها، ومن الفطرة النفور من الشدة والإعنات، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28].

وقد أرادَ اللهُ أن تكونَ الشريعةُ الإسلاميةُ شريعةً عامةً دائمةً، فاقتضى ذلك أن يكون تنفيذُها بين الأمة سهلاً، ولا يكونُ ذلك إلا إذا انتفى عنها الإعنات، فهي بسماحتها أشدَّ ملاءمة للنفوس؛ لأنَّ فيها إراحة النفوسِ في حاليْ خُوَيصتها ومجتمعها[1].

وقد ظهر للسماحة أثرٌ عظيم في انتشار الشريعة، وطول دوامها، إذ أرانا التاريخُ أنّ سرعة امتثال الأمم للشرائع، ودوامهم على اتباعها؛ كان على مقدار اقتراب الأديان من السماحة، فإذا بلغَ بعضُ الأديان من الشدة حدّاً متجاوزاً لأصل السماحة لحق اتباعه العنت، ولم يلبثوا أن ينصرفوا عنه، أو يفرِّطوا في معظمه.

وقد حافظ الإسلام على استدامة وصف السماحة لأحكامه، فقدّر لها أنها إن عرض لها من العوارض الزمنية أو الحالية ما يصيرها مشتملة على شدة فتح لها باب الرخصة المشروع بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: 173]. وبقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام 119]، وفي الحديث: «إنّ

---

[1] مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن عاشور ص(271).

اللّهَ يحبُّ أن تؤتى رُخصُه كما يُحِبُّ أن تؤتى عزائمُه»[1]. ومن قواعد الفقه المشهورة: «المشقة تجلب التيسير».

1 . ومن سماحة القرآن الكريم، إنكارهُ على أصحاب النزعات المتطرّفة، والذين يحرّمون الطيبات والزينة التي أخرج لعباده[2]. قال تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۝ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 31 . 32].

وفي القرآن المدني يخاطب الجماعة المؤمنة بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: 87 . 88].

وهاتان الآيتان الكريمتان تبينان للمسلمين حقيقة منهج الإسلام في التمتع بالطيبات، ومقاومة الغلو الذي وُجِدَ في بعض الأديان، أو عند بعض المتنطعين[3].

2 . ومن سماحة الإسلام أيضاً ما يتبعه من منهج في الدعوة إلى الله عز وجل، وجدال المخالفين، ففي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[النحل: 125][4].

ومن تأمّل الاية الكريمةَ يجدُ أنّها لا تكتفي بالأمر بالجدال بالطريقة الحسنة، بل أمرت بالتي هي أحسن، فإذا كان هناك طريقتان للحوار والمناقشة إحداهما حسنة،

[1] صحيح ابن حبان رقم (354).
[2] أصول النظام الاجتماعي ص (52).
[3] المصدر نفسه ص(52).
[4] سماحة الإسلام، عمر عبد العزيز ص(370).

والآخرى أحسن منها، وجب على المسلم أن يجادِلَ بالتي هي أحسن؛ جذباً للقلوب النافرة، وتقريباً للأنفس المتباعدة[1].

3 . من سماحة النبي صلى الله عليه وسلم أنّ فتًى من قريش جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الزنى، فثار الصحابة، وهمّوا به لجرأته على النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وقف موقفاً اخر فقال: «ادنه» فدنا، فقال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا واللهِ، جعلني الله فداك؟ قال: «ولا الناسُ يحبونه لأمهاتهم»، ثم قال له مثل ذلك في ابنته وأخته وعمته وخالته، في كل ذلك يقول: «أتحبه لكذا؟» فيقول: لا، جعلني الله فداك، فيقول صلى الله عليه وسلم: «ولا الناسُ يحبونه». فوضع يده عليه، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصّن فرجه»، فلم يكن بعد ذلك يلتفت إلى شيء[2].

وإنما عامله النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الرفق، تحسيناً للظن به، وأنَّ الخير كامِنٌ فيه، والشر طارأئ عليه، فلم يزل يحاوره حتى اقتنع عقله، واطمأن قلبه إلى خبث الزنى وفحشه، وكسب مع ذلك دعاء النبي صلى الله عليه وسلم[3].

الرابع عشر . الرحمة:

وهي من الأخلاق القرآنية العظيمة التي كانت لها العناية الكبرى في القرآن الكريم من حيث ذكرها، والتوبة بشأنها لما لها من عظيمِ الأثرِ في الحياة الدينية والدنيوية[4].

---

[1] المصدر نفسه ص(30).
[2] مسند أحمد (256/5).
[3] سماحة الإسلام، د.عمر عبد العزيز ص(31).
[4] أخلاق النبي (ص) في القران والسنة، د. أحمد الحداد (611/2).

1 . الرحمة صفة من صفات الله تعالى:

الرحمة صفةٌ من صفات الحقّ تبارك وتعالى، التي وصف بها نفسه كثيراً في القرآن العظيم في نحو مئتي اية، فضلاً عن تصدر كل سورة بصفتي الرحمن الرحيم، وذلك في البسملة التي هي ايةٌ من كلِّ سورة عدا سورة براءة[1]، وذلك للدلالة على مبلغ رحمته العظيمة، وشمولها العام بعباده ومخلوقاته. قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: 156 . 157]. وقال تعالى على لسان ملائكته الكرام: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ [غافر: 7].

وقال تعالى تعليماً للنبي صلى الله عليه وسلم أنْ يقول للمشركين إنْ هم كذبوه: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: 147].

ولقد قرر الله تعالى في كتابه الكريم أنّ الرحمةَ صفته الثابتة التي لا تزول عنه أبداً، كما قال سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54].

وقد ظهرت اثارُ رحمته في الخليقة كلها، فما مِنْ أحدٍ مسلمٍ أو كافرٍ إلا وعليه من اثار رحمته في هذه الدنيا، ففيها يتعايشون، ويؤاخون، ويوادُّون، وفيها يتقلَّبون، لكنّها للمؤمنين خاصةً في الآخرة، لاحظّ للكافرين فيها[2].

2 . من مظاهر رحمته بخلقه:

من أجلِّ مظاهر رحمة الله تعالى أن بعث لهم رسله تترى، ثم بعث خاتم أنبيائه، وسيد

[1] أخلاق النبي (ص) (612/2).

[2] محاسن التأويل، للقاسمي (157/7).

رسله، وصفوته من خلقه محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه؛ الذي امتن به على الأمة، وكشف به الظلمة، وأزاح به الغمة، وجعله رحمة للعالمين أجمعين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 107]. وكما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: 128].

وقد حدَّث النبي صلى الله عليه وسلم عن رحمة الله تعالى، ومبلغ سعتها وكنهها، فقال: «إنّ اللهَ لما قَضَى الخلقَ كتب عنده فوق عرشه: إنّ رحمتي سبقتْ غَضَبِي»[1].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «جعلَ اللهُ الرحمةَ مئةَ جزءٍ، فأمسكَ عنده تسعة وتسعين، وأنزلَ في الأرضِ جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحمُ الخلائقُ، حتى ترفع الدَّابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»[2].

ومن حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قُدِمَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبي، فإذا امرأةٌ من السبي تسعى قد تحلّب ثديُها، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته، وألصقته ببطنها، وأرضعته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أترونَ هذه المرأةَ طارحةً ولدَها في النار؟» قلنا: لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهُ أرحمُ بعبادهِ من هذه بولدِها»[3].

3 . حض المؤمنين على التحلي بالرحمة:

ندب الله تعالى عباده إلى التحلي بالرحمة، وحثّهم عليها في بعض مواطنها؛ لكبير

---

(1) مسلم رقم (2751).

(2) مسلم رقم (2754).

(3) مسلم رقم (2754)، تحلَّب: اجتمع حليب ثديها فيه.

أهميتها في تلك المواطن، لينالوا أجرَها، وعظيم ثوابها، وذلك كالرحمة بالوالدين اللَّذين عظمَ الله شأنهما، وقرن شكرهما بشكره، وطاعتهما بطاعته، فكانت الرحمةُ عند الكبر محتَّمة، حيث قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 24].

وقد قال الله جل ذكره في شأن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29]. كما أثبتها بلازمها لهم، ولمن اتصف بصفاتهم بقوله سبحانه: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 54].

إذ الذلة التي يتحلّون بها فيما بينهم بسبب التراحم بينهم، وهذا دليل على أنَّ الرحمة من أجلّ صفات المؤمنين، حيث كان حديث القرآن عن الرحمة لديهم في معرض الامتنان والثناء والمدح البليغ، ممّا يدل على عظيم مكانة المتراحمين من المسلمين عند الله تعالى، وقد دلَّ على ذلك ما أعده الله تعالى لهم من الأجر والثواب الذي أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: 17 ـ 18]. أي: أصحاب اليمين الذين يُعْطَوْنَ كتبهم بأيمانهم، والذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۝ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ۝ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ۝ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ۝ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ۝ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: 27 ـ 34][1].

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوةَ الحسنةَ في تحقيق هذا المقصد، وهو الرحمة بالعالمين، فكانت رحمته بالمؤمنين، وبالأهل، والعيال، وبالضعفاء، والكافرين،

---

[1] أخلاق النبي (ص) (615/2).

والحيوان، وكتب السيرة مليئةٌ بالمواقف والأحاديث الدالة على ذلك.

الخامس عشر . الوفاء بالعهود والعقود:

والوفاء من أخلاق السلوك الاجتماعية العظيمة؛ التي كان للقرآن الكريم بها عناية فائقة؛ لما له من عظيم الدلالة على تزكية النفوس، وصفاء الفطر، وسلامة الإيمان[1].

1 . الترغيب بالوفاء بالعهد:

رغّبَ الله تعالى بالوفاء بالعهود بما أعدَّ الله لهم من الثواب، وبما أثنى به عليهم في مُحْكَم الكتاب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 10].

وقد فصّل في آيات أخرى عظمة ذلك الأجر فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۝ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۝ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۝ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[الرعد: 19 . 24].

فترى أنّ ذلك الأجرَ العظيمَ لم يقتصر عليهم، بل سرى إلى أصولهم وفروعهم وأهليهم، وأيُّ نعيم للمرء أكبرُ من أن يصحبه فيه أصوله وفروعه وأهلوه، لا جرمَ لا يفرط عاقل بهذا الثناء، وذلك الجزاءُ بعد أن يعلمه وهو قادر على أن يناله؛ إلا أن يكون ممّن غلبت عليه شقوته، وأولئك لهم سوء الدار.

---

[1] المصدر نفسه (549/2).

2. الأوامر القرآنية بالوفاء بالكيل والوزن:

الوفاء بالكيل والوزن، وهو المجال الذي يتعلق كليةً بحقوق الآخرين، وما يترتب عليه من قوام حياتهم ومعاشهم، وهو المجال الذي لا سبيل إلى التساهل فيه؛ لأنّه مبنيٌّ على المشاحّة والمقاصّة، فالوفاء فيه يُصْلِحُ للناسِّ أحوالَهم، ويحفظ لهم حقوقهم، ولهذا تكرر الأمر به في القرآن الكريم خمس مرات، منها قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [الأنعام: 152]. وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾[الإسراء: 35][1].

وتحدّث القرآن الكريم عن شعيب عليه السلام مع قومه، فقد كان قومه ـ بحكم موقع بلادهم الجغرافي ـ يتحكّمون في طرق التجارة الموصلة بين شمال الجزيرة وجنوبها، وبين مصر والشام وبلاد العراق، فكانوا يفرضون على الناس ما شاؤوا من المعاملات التجارية الجائرة، سعياً إلى جني الربح الفاحش، دون مراعاةٍ لما يقع على غيرهم من الظلم والغبن، وقد شاعت فيهم هذه المعاملات، حتى صارت أمراً متعارفاً عليه عندهم، فلمّا بعث الله شعيباً عليه السلام استهلَّ دعوته بمحاربةِ ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والأوثان، ثم ثنى بمحاربة تلك المعاملات الجائرة، ومن أبرزها: نقص الميزان والمكيال[2]. قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف: 85].

---

[1] أخلاق النبي (ص) (554/2).

[2] أسباب هلاك الأمم السالفة، سعيد محمد بابا ص(450).

ولهذه الاية نظائر في سورة [هود: 84 . 85]، قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَال ياقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ۝ وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾وقال تعالى في سورة الشعراء ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ [الشعراء: 181] .

ونجد تركيز شعيب عليه السلام على معالجة هذا الانحراف المتأصل في قومه بأساليب مختلفة، شملت الأمر والنهي، والترغيب والترهيب. وقد كان لقوم شعيب معاملات أخرى جائرة غير نقص المكيال والميزان، وذلك أمر متوقع ممّن يمارِسُ هذا العمل، ونجد شعيباً عليه السلام يذكر هذه المعاملات في جملة من الأمور التي نهاهم عنها، وهي:

أ . بخس الناس أشياءهم:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: 85]. والبخس في الأصل هو: النقص، ومن أحسن ما قيل في حدِّه قولُ ابن العربي رحمه الله: البخسُ في لسان العرب هو: النقصُ بالتعييب والتزهيد، أو المخادعة عن القيمة، أو الاحتيال في التزيد في الكيل أو النقصان منه[1]. فالبخسُ على هذا أعمُّ من نقص الميزان والمكيال، فإنّه يكونُ في المكيل والموزون وغيرهما كالمعدودات، والمقدَّرات، فيعمُّ كلَّ تصرُّف يُقصد منه انتقاص حقوق الناس، ولذلك صور كثيرة لا تنقضي[2].

ب . الفساد في الأرض:

[1] أحكام القران (318/2).
[2] أسباب هلاك الأمم السالفة، سعيد محمد بابا ص(450).

وقد ورد في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ [الأعراف: 85].

وقوله: ﴿وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [هود: 85]. والفسادُ في الأرض أعمّ من كلِّ ما سبق، فيدخل فيه كل معصية كانوا يعملونها، من عبادةِ غيرِ الله، ونقص المكيال والميزان، وبخس الناس حقوقهم، وغير ذلك[1].

ج . قطع الطريق:

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: 86]. وفي هذه الاية نهيٌ عمّا كانوا يفعلونه من القعود في طريق من يريد المجيء إلى شعيب عليه السلام لسماع دعوته، فيصدّونه، ويقولون: إنّه كذاب[2]، وهذا من الأوجه التي حُملت عليها هذه الجملة، وذكر فيها وجهان اخران، أولهما: قطع الطريق وسلب أموال الناس، وثانيهما: القعود في الطرق لأخذ العشور من الناس، وجوّز الشوكاني رحمه الله حمل الجملة على هذه الأوجه كلها[3].

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها شعيب عليه السلام في معالجة هذه الانحرافات في قومه، فإنّه لم يلقَ منهم غيرَ العناد والإصرار، وذلك لشيوع تلك الانحرافات بينهم، وتأصّلها فيهم، وفي اخر الأمر ردوا عليه ردّاً قبيحاً، إذ اعتبروا محاولاته في صرفهم عن معاملاتهم الجائرة ضرباً من الهذيان، سببه ما يداوم عليه من الصلاة، قال تعالى: ﴿قَالُوا ياشُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾[هود: 87]، فقولهم: يعنون به: ما درجوا عليه من نقص المكيال والميزان﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾، وبخس الناس حقوقهم،

---

[1] المصدر نفسه ص(451).
[2] المصدر نفسه ص(451).
[3] المصدر نفسه ص(452)، فتح القدير (224/2).

وسائر معاملاتهم الظالمة، فاستهزؤوا بشعيب، وأنكروا عليه تدخله في تلك الأمور، بدعوى أن الأموال لهم، وهم أحرار فيها، يتصرفون فيها كيف شاؤوا، ويفرضون على الناس ما يحقق لهم الأرباح.

وهذا عينُ ما يردِّده المنحرفون عن المنهج الرباني في هذا العصر، بل وفي كل عصر، يتعاطون أكلَ أموال الناس بالباطل عن طريق الغش والخداع، والحيل والربا وسائر المعاملات المحرمة، فإذا نُهوا عن ذلك، تعلّلوا واحتجوا بما يسمّونه حرية الاقتصاد، واستنكروا أن يتدخل الدينُ في هذه الأمور[1].

والأجدر بهؤلاء، لاسيّما المنتسبين منهم إلى الإسلام أن يعتبروا بما حلّ بأشباههم في سالف الأزمان من الهلاك بسبب معاملاتهم الظالمة، وإصرارهم عليها، أفيأمنُ أحدُهم أن يأخذه الله بعاجل العذاب، ويجعله عبرة لأهل زمانه ولمن بعده، كما جعل قومَ شعيبٍ عبرةً لأهل زمانهم ولمن بعدهم، والعاقل من اتعظ بغيره، لا من وُعظ به غيرُه[2]، فقد كان قوم شعيب أهل شرك وكفر، وتطفيف للمكاييل والموازين، ولم تُجْدِ معهم دعوةُ شعيب إياهم إلى التوحيد، وإيفاء الكيل والميزان، بل ازدادوا عناداً وإصراراً، فأصابهم عذاب الظلة، وهي

سحابة أظلتهم، فيها شرر من نار ولهب، ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام[3].

---

[1] في ظلال القران (609/4).
[2] أسباب هلاك الأمم السالفة ص(453).
[3] تفسير ابن كثير (2/ 242).

3. الأمر بالوفاء بالعقود:

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1]. ومعنى الاية: يا أيها الذين التزمتم بإيمانكم أنواع العقود والعهود في إظهار الطاعة، أوفوا بتلك العقود التي التزمتم بها، وإنّما سمى الله تعالى هذه التكاليف عقوداً؛ لأنّه ربطها بعباده، كما يُرْبَطُ الشيءُ بالشيءِ بالحبل الموثق[1]، فالاية الكريمة تنادي الموصوفين بالإيمان أن يفوا بالعقود التي التزموا بها، ووصفهم بالإيمان تهييجاً لهم على الوفاءِ بالعقود؛ لأنّ ذلك من مقتضيات الإيمان الذي تعلقوا به[2].

4. الأمر بالوفاء بالنذر:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[الحج: 29]. والنذور: جمع نذر، وهو التزام قربة لم تتعيّن في الشرع[3]، ومنه ما وردت فيه الاية؛ مما ينذره الحاج من أعمال البر في حجه من هدي ونحوه، وهو ما شملته اية المائدة السابقة؛ لأنّ عقداً يعقده المؤمن مع الله تبارك وتعالى، فإفراده بالذكر من بين سائر العقود يدل على أهمية الوفاء به، وحتى لا يفرط فيه المؤمن، فيتخلى عن عدم الإيفاء به لعدم المطالب في الدنيا، إذ لا يزع على الإيفاء به إلا قوة الإيمان[4]، ولذلك كان تهديدُ الله تعالى للمفرطين به مخيفاً، حيث قال: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة: 270].

فإذا كان النذرُ يعلمه الله تعالى فإنّ رهن المجازاة به أداءً أو تفريطاً، فلا يخادع إلا

---

(1) التفسير الكبير (123/11).

(2) أخلاق النبي (ص) (558/2).

(3) أي: ليزيلوا أوساخهم وشعثهم كطول الشعر والظفر.

(4) الياقوت النفيس، للشاطري ص(264).

نفسه إن هو لم يفِ به، أما إذا وفّى به فإنه يكون ذا مكانة عالية عند الله تعالى، كما يدّل عليه تنويه الله تعالى بأهل هذا الخلق العظيم في كتابه الكريم[1].

5. تنويه القرآن الكريم بأهل الوفاء:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: 19 . 20]. فنعتهم الله تعالى بأولي الألباب، أي: أصحاب عقول، حيث هدتهم عقولهم إلى وجوب احترام العهود والمواثيق التي التزموا بها لخالقهم في الإيمان والعبادة، والمخلوقين في المعاملات والسلوك، فلا ينقضون عهداً ولا ميثاقاً، ومنها قوله سبحانه في سياق تعداد صفات أهل البر من عباده: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 177].

فوصف الله تعالى أصحابَ هذه الأخلاق، ومنها خُلق الوفاء، بأنّهم أهلُ صدق وأهل تقوى، وذلك لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه، واتقوا عذابه وعقابه الذي وعد به الناكثين والخائنين، فتأمل مبلغَ هذا الثناء من الملك الجليل المتضمن للتنويه العظيم بأهل تلك الأخلاق الكريمة تجد التعبير قاصراً عن إدراك كنهه، لما ينطوي عليه من الجزاء الكبير المعد لأولئك الموصفين بهذه الصفات، إذ هو بحسب مقام المثِني والمثيب، جعلنا الله ممن نال حظاً من ثنائه وجزائه الكريم، فإنّ جزاءه الكريم لهو الجزاء الأوفى، ولا غَرْوَ أن ينال أهل الوفاء ذلك الثناء وذلك الجزاء العظيم، فإنّهم قد تحلّوا بذلك الخلق العظيم الذي هو من صفات الحق تبارك وتعالى، فإنّه سبحانه ذو الوفاء الذي لا يدانيه وفاء، كما أخبر سبحانه عن نفسه، وهو أصدق القائلين بقوله

---

[1] المصدر نفسه (559/2).

تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 111].

كما أنّه من صفات أنبياء الله عليهم الصلاة السلام، فهذا نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام قد ضربَ المثلَ في الوفاء، إذ وفّى وفاء لم يُعرف أحد من البشر أن ابتلي بمثله، وذلك حينما أمره الله تعالى بأن يذبح ابنه، فلذة كبده بيده، فما كان منه إلا أن امتثل أمر ربه، وطاوعه ابنه على أمر ربه، وتلّه للجبين، ليحقق أمر الله، فلمّا علم الله صدقه ووفاءه فداه بِذِبحٍ عظيم، وناداه معبراً عن رضاه عنه، وعن وفائه بقوله: ﴿يا إِبْرَاهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: 104-105][1].

كما ابتلاه الله أيضاً بكلمات من التكاليف الشرعية، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 124]. فاستحقَّ بذلك أن ينوه الله تعالى بوفائه هذا، فقال: وفّى بجميع ما أمره الله به من التكاليف الشرعية وكذلك نبيُّ الله يوسف عليه السلام، فإنّ خُلقَ الوفاء حمله على أن ينسى ما عمله إخوانه معه من مكر وخديعة؛ بحيث كانوا يهدفون إلى أن يلقوه حتفه حينما ألقوه في غيابة الجُبّ، ناهيك عمّا أورثوه أباهم نبيَّ الله يعقوب عليه السلام من حزن عميق على فقد ابنه يوسف عليه السلام؛ حتى ابيضت عيناه من الحزن، ومع ذلك فلمّا وفد إليه إخوته بعد أن مكنه الله من خزائن الأرض، قال تعالى: ﴿أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [يوسف: 59]. هذا هو الوفاء بحقوق الناس عامة، والإخوة والأرحام منهم خاصة، وهذا هو الخلق الكريم اللائق من نبي كريم، ولا ريبَ فهو الكريم ابن الكريم ابن

---

[1] أخلاق النبي (ص) (560/2).

الكريم، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم[1].

6. ما أعده الله لأهل الوفاء من الأجر والجزاء:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الدهر:5-7]. فسمّاهم الله تعالى أبراراً، ومعلوم أنّ الأبرار لهم صفات كثيرة تدل على عظمة إيمانهم وتعبدهم، ولكنْ لم يذكر الله تعالى في هذه الآية الدالة على مبلغ ثوابهم وأجرهم إلا صفة الوفاء والخوف، وذلك لأنّ هذا الوصفَ أبلغُ في التوفر على أداء الواجبات، لأنّ مَنْ وفّى بما أوجبه الله على نفسه لله، كان أوفى بما أوجبه الله عليه بالأولى[2]، وذلك يدل على قوة الإيمان، إذ لا يدفع إلى الوفاء بالنذر إلا قوة الإيمان، وتفاوتُ الناسِ عند الله تعالى إنّما يكون بحسب قوة إيمانهم وضعفه، كما دل عليه قوله تَعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: 13]. جعلنا الله من أهل الوفاء والتقوى بمنه وكرمه[3].

فهذه من أهم مقاصد القرآن الكريم، وقد تناولنا بعضها، كتصحيح المعتقد، وتقوى الله وعبادته، وتزكية النفس، والحرية، والشورى، وكرامة الإنسان، وتحرير المرأة من ظلم الجاهلية، وتكوين الأسرة، وبناء الأمة الشهيدة على الناس، والسماحة، والرحمة، والوفاء بالعهود.

* * *

---

(1) أخلاق النبي (ص) (560/2).
(2) أخلاق النبي (ص) (561/2).
(3) المصدر نفسه (561/2).

الفصل الرابع : جمع القرآن الكريم وكتابته

أولاً . جمع القرآن الكريم كتابة من فم الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثانياً . جمع القرآن الكريم في مصحف واحد في عهد أبي الصديق رضي الله عنه.

ثالثاً . جمع القرآن الكريم في عدد من المصاحف في عهد عثمان ذي النورين رضي الله عنه.

رابعاً . هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة؟

خامساً . عدد المصاحف التي أرسلها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار.

سادساً . الفرق بين جمع الصديق وجمع عثمان رضي الله عنهما.

الفصل الرابع : جمع القرآن الكريم وكتابته

وردت لفظة «الجمع» بمعنى: «الحفظ مع دقة الترتيب» عدّة مرّات في كتاب الله، وذلك من مثل قوله تعالى مخاطباً خاتمَ أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقرآنهُ ۝ فَإِذَا قرآناهُ فَاتَّبِعْ قرآنهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة: 16 ـ 19].

وهذا المعنى اتاه الله تعالى ـ لخاتم أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم ـ ولعددٍ غيرِ قليل من صحابته الكرام، ومن تبعهم من الصالحين إلى اليوم، وحتى يوم الدين، وهؤلاء تدارسوا القرآن الكريم، ولا يزالون يتدارسونه ويستظهرونه، ليتمكنوا من القراءة به في الصلوات المكتوبة، وفي النوافل، وفي الاستشهاد.

كما وردت لفظة «الجمع» بمعنى: «الكتابة والتدوين».

وقد مرّ جمع القرآن وتدوينه بمراحل ثلاثة:

أولاً ـ جمع القرآن الكريم كتابة من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]:

إنّ جميع الأحاديث الواردة في هذا الشأن تتفق على أنّ ترتيب آيات القرآن، حسبما عليه المصحف الان، إنّما هو ترتيبٌ توقيفي، لم يجتهد فيه رسول الله ولا أحد من الصحابة في عهده أو من بعده، وإنّما كان يتلقّى ترتيبَ بعضها إلى جانب بعض وحياً من عند الله بواسطة جبريل.

روى الإمام أحمد بإسناده عن عثمان بن أبي العاص، قال: كنتُ جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شخصَ ببصره ثم صوّبه، قال: «أتاني جبريل فأمرني أن

---

[1] مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي د. زغلول النجار.

أضع هذه الاية هذا الموضع من هذه السورة»: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل: 90][1].

إنّ من مظاهر عناية الله بالقرآن الكريم وحفظه ما تمّ على يد الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته من حفظ القرآن في صدورهم، وكتابته في الصحف، وقد بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته في ذلك أرقى مناهج التوثيق، ذلك أنَّ القرآن الكريم نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم منجّماً في ثلاث وعشرين سنة[2]، حسب الحوادث ومقتضى الحال، وكانت السورةُ تدوَّن ساعةَ نزولها، إذ كان المصطفى صلى الله عليه وسلم إذا ما نزلت عليه ايةٌ أو آيات قال: ضعوها في مكان كذا... سورة كذا[3].

ولهذا اتفق العلماء على أنّ جمع القرآن توقيفي، بمعنى أن ترتيبَ آياته بهذه الطريقة التي نراه عليها اليوم في المصاحف إنما هو بأمر الله، ووحي من الله[4].

وما يقال عن ترتيب آيات القرآن هو الذي يقوله إجماع المؤرخين والمحدّثين والباحثين عن ترتيب السور، ووضع البسملة في رؤوسها، قال القاضي أبو بكر الباقلاني رواية عن مكي رحمه الله في تفسير سورة «براءة»: إنَّ ترتيب الآيات في السور، ووضع البسملة في الأوائل هو توقيفٌ من الله عز وجل، ولما لم يؤمر بذلك في أول سورة براءة تُرِكَت بلا بسملة[5].

وروى القرطبي عن ابن وهب قال: سمعتُ سُلَيمان بن بلال يقول: سمعتُ ربيعة

---

[1] مسند أحمد، لا يأتيه الباطل، د. محمد سعيد رمضان البوطي ص(217).
[2] مباحث في علوم القران، مناع القطان ص(105).
[3] الإتقان في علوم القران، للسيوطي (1/60 . 61).
[4] البرهان في علوم القران (1/234 . 235).
[5] تفسير القرطبي (1/61) البخاري (5/165).

يُسأل: لم قدّمت البقرةُ وآلُ عمران وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة، وإنما نزلتا في المدينة؟ فقال ربيعة: قد قدمتا، وألّف القرآن على علمٍ ممّن ألّفه.

هذا عن ترتيبِ اي القرآن وسوره، أما عن كتابته، فمن المعلوم أولاً أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، أجمعَ على ذلك عامة المؤرخين، وكل المشركين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لذا فقد كان يعهد بكتابة ما يتنزل عليه من القرآن إلى أشخاصٍ من الصحابة بأعيانهم كانوا يُسمَّون كتّاب الوحي، وأشهرهم الخلفاء الأربعة، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، والزبير بن العوام، وشُرَحْبيل بن حسْنة، وعبد الله بن رواحة، وقد كانوا يكتبون ما يتنزل من القرآن تباعاً حسب الترتيب الذي يأتي به جبريل؛ فيما تيسر لهم من العظام المرققة والمخصصة لذلك، وألواح الحجارة الرقيقة والجلود، وقد كانوا يضعون ما يكتبونه في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يكتبون لأنفسهم إنْ شاؤوا نسخاً عنها يحفظونها لديهم، ولقد كان من الصحابة من يتتبع ما ينزل من آيات القرآن ويتتبع ترتيبها فيحفظها عن ظهر قلب، حتى كان فيهم من حفظ القرآن كله، فمن المشاهير أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، واخرون[1].

وظلَّ الصحابة يعكفون على حفظ القرآن غيباً، حتى ارتفعت نسبةُ الحفّاظ منهم إلى عدد لا يحصى.

يتضح لك من هذا الذي ذكرناه أنّ القرآن وعاه الصدر الأول من الصحابة، وبلّغوه إلى مَنْ بعدَهم بطريقتين اثنتين:

إحدهما: الكتابة التي كانت تتم للقرآن بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم لأشخاص

---

[1] لا يأتيه الباطل، محمد سعيد رمضان البوطي ص(217).

بأعيانهم وكّل إليهم هذا الأمر، ولم ينتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه إلا والقرآن مكتوب كله في بيته.

الثانية: حفظه في الصدور عن طريق التلقي الشفهي من كبار قرّاء الصحابة وحفاظهم؛ الذين تلقَوْه بدورهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ الذي أقرّهم على كيفية النطق والأداء[1].

وكان كلّ ما يكتب من آيات وسورِ القرآن الكريم بعدَ الوحي بها مباشرةً يُحْفَظُ في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع استنساخ كُتّاب الوحي نسخاً لأنفسهم من جميع ما أُملي على كلٍّ منهم، وبذلك تمَّ جمعُ القرآن الكريم كله كتابة وحفظاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

وثبت أنَّ جبريل عليه السلام كان يعارِضُ الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرآن مرّةً واحدةً في كلِّ سنة، ثم عارضه به في السنّةِ التي توفّي فيها صلى الله عليه وسلم مرتين[3]، ومعنى هذا أنَّ القرآن الكريم كان في صورته التامّة في هذه السنة التي تمّ عرضُه فيها مرّتين، ولذلك شواهد كثيرة ذكرها العلماء، من أظهرها ما أورده البغويُّ عن أبي عبد الرحمن السُّلمي أنّه قال: كانت قراءة أبي بكر وعمر وعثمان، وزيد بن ثابت، والمهاجرين والأنصار واحدةً، كانوا يقرؤون القراءة العامة فيه، وهي القراءةُ التي قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على جبريل مرّتين في العام الذي قُبض فيه، وكان زيد قد شهد العرضة الأخيرة، وكان يقرأئُ الناس بها حتى مات، ولذلك

---

[1] تفسير القرطبي (61/1) البخاري (165/5).

[2] البرهان للزركشي (238/1)، الإتقان (58/1)، فتح الباري في شرح البخاري (18/9)، لا يأتيه الباطل ص(218).

[3] المصدر نفسه ص(219).

اعتمده الصدّيق في جمعه أولاً، وولاه عثمانُ على كَتَبة المصحف[1].

على أنّ القرآن رغم ذلك لم يجمع بين دفتين في مصحف على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك لضيقِ الوقتِ بين اخرِ ايةٍ نزلت من القرآن وبين وفاته صلى الله عليه وسلم[2].

ثانياً . جمع القرآن الكريم في مصحف واحد على عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

كان من ضمن شهداء المسلمين في حرب مسيلمة الكذّاب في اليمامة كثيرٌ من حفظة القرآن، وقد نتجَ عن ذلك أنْ قام أبو بكر رضي الله عنه بمشورة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بجمع القرآن، حيث جُمِعَ من الرقاع والعظام والسَّعْف ومن صدور الرجال[3]، وأسندَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه هذا العمل العظيم، والمشروعَ الحضاريَّ الضخم إلى الصحابي الجليل زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه.

يروي زيد بن ثابت رضي الله عنه فيقول: بعث إليَّ أبو بكر رضي الله عنه فقال: إنّ عمر أتاني فقال: إنَّ القتلَ قد استحرّ[4] يومَ اليمامة بقرّاء القرآن، وإنِّي أرى أنْ تأمرَ بجمع القرآن، قلتُ لعمر: كيفَ أفعلُ شيئاً لم يفعله رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم[5]؟ فقال عمر: هذا واللهِ خيرٌ، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرحَ الله صدري للذي شرحَ له صدرَ عمر، ورأيتُ في ذلك الذي رأى عمر، قال زيدٌ: قال أبو بكر: وإنّك

---

(1) مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي ص(68).

(2) البخاري رقم (4710).

(3) شرح السنة (3/50)، تميز الأمة الإسلامية، د. إسحاق السعدي (1/595).

(4) لا يأتيه الباطل ص(219).

(5) حروب الردة وبناء الدولة، أحمد سعيد ص(145).

رجلٌ شابٌّ عاقل لا نتهمك[1]، وقد كنتَ تكتبُ الوحيَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبّع القرآن فاجمَعْهُ[2]، قال زيد: فوالله لو كلّفوني نقل جبلٍ من الجبال ما كان بأثقلَ عَليّ مما كلفني به من جمع القرآن، فتتبعتُ القرآن من العسب[3] واللِّخاف[4]، وصدورِ الرجال، والرِّقاع[5]، والأكتاف[6]. قال: حتى وجدتُ اخرَ سورةِ التوبةِ مع أبي خزيمة الأنصاريّ، لم أجدها مع أحدٍ غيره، وهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]، حتى خاتمة براءة، وكانت الصحف عند أبي بكر في حياته حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهم[7].

وعلق البغوي على هذا الحديث فقال: فيه البيانُ الواضحُ أنّ الصحابة رضي الله عنهم جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم من غير أن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه شيئاً، والذي حملهم على جمعه ما جاء في الحديث؛ وهو أنّه كان مفرّقاً في العسب واللخاف وصدور الرجال، فخافوا ذهاب بعضه بذهاب حفظته، ففزعوا فيه إلى خليفةِ رسول الله، ودعَوْه إلى جمعه، فرأى في ذلك رأيهم، فأمر بجمعه في موضعٍ واحدٍ باتفاقٍ من جميعهم، فكتبوه كما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير أن يقدموا شيئاً أو يؤخروا أو

---

[1] استحرّ: كثر واشتد.
[2] أي: من الأشياء التي عندك وعند غيرك.
[3] العسب: جريد النخل.
[4] اللخاف: جمع لخفة، وهي صفائح الحجارة.
[5] الرقاع: جمع رقعة، وهي قطع الجلود.
[6] الأكتاف: جمع كتف، وهو العظم الذي للبعير أو الشاة.
[7] البخاري رقم (4986).

يضعوا له ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى أصحابه، ويعلّمهم ما ينزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الان في مصاحفنا بتوقيفٍ جبريل صلوات الله عليه إياه على ذلك، وإعلامه عند نزولِ كلِّ ايةٍ أنّ هذه الاية تكتب عَقِبَ ايةِ كذا في السورة التي يذكر فيها كذا[1].

وهكذا يتضح للقارئ الكريم أنّ من أوليات أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أنّه أوّل من جمع القرآن الكريم، يقول صعصعة بن صَوْحان رحمه الله: أول من جمع القرآن بين اللوحين، وورّث الكلالة[2]، أبو بكر.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يرحم الله أبا بكر، هو أول من جمع القرآن بين اللوحين[3].

وقد اختار أبو بكر رضي الله عنه زيدَ بن ثابتٍ لهذه المهمة العظيمة، وذلك لأنّه رأى فيه المقوّمات الأساسية للقيام بها، وهي:

1. كونه شاباً، حيث كان عمره واحداً وعشرين عاماً، فيكون أنشطَ لما يُطْلبُ منه.

2. كونه أكثر تأهيلاً، فيكون أوعى له، إذ مَنْ وهبه الله عقلاً راجحاً فقد يسّر له سُبُلَ الخير.

3. كونه ثقة، فليس هو موضعاً للتهمة، فيكون عملُه مقبولاً، وتركنُ إليه النفوس، وتَطمئن إليه القلوب.

---

[1] شرح السنة، للبغوي (522/4).

[2] الكلالة: من لا ولد له ولا والد.

[3] أخرجه ابن أبي شيبة (196/7) وإسناده صحيح.

4. كونه كاتباً للوحي، فهو بذلك ذو خبرةٍ سابقةٍ في هذا الأمر، وممارسةٍ عمليةٍ له فليس غريباً عن هذا العمل، ولا دخيلاً عليه[1].

هذه الصفاتُ الجليلةُ جعلتِ الصدّيق يُرشِّحُ زيداً لجمع القرآن، فكان به جديراً، وبالقيام به خبيراً.

5. ويضافُ لذلك أنّه أحد الصحابة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم مع الإتقان.

وأما الطريقة التي اتبعها زيد في جمع القرآن؛ فكان لا يثبِتُ شيئاً من القرآن إلا إذا كان مكتوباً بين يدي النبيّ صلى الله عليه وسلم ومحفوظاً من الصحابة، فكان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة، خشيةَ أنْ يكونَ في الحفظِ خطأ أو وهمٌ، وأيضاً لم يقبل من أحدٍ شيئاً جاء به إلا إذا أتى معه شاهدان يشهدان أن ذلك المكتوبَ كُتِبَ بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنّه من الوجوه التي نزل بها القرآن[2].

وعلى هذا المنهج استمرّ زيدٌ رضي الله عنه في جمع القرآن حَذِراً، متثبّتاً، مبالغاً في الدقة والتحري[3].

إنّ زيداً اتبع طريقة في الجمع نستطيعُ أن نقولَ عنها من غير ترددٍ: إنّها طريقةٌ فذّة في تاريخ الصناعة العقلية الإنسانية، وإنها طريقة التحقيق العلمي المألوف في العصر الحديث، وإنّ الصحابيَّ الجليل قد اتبع هذه الطريقة بدقة دونها كل دقة، وإنّ هذه الدقة في جَمْعِ القرآن متصلةٌ بإيمان زيد بالله، فالقرآن كلامُ الله جل شأنه، فكل تهاونٍ

---

[1] التفوق والنجابة على نهج الصحابة، حمد العجمي ص(73).

[2] المصدر نفسه ص(74).

[3] أبو بكر الصديق، للمؤلف ص(264).

في أمره، أو إغفالٍ للدقة في جمعه وزر؛ ما كان أحرص زيداً ـ في حسن إسلامه، وجميل صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتنزه عنه.

إنّ ما قام به زيد بن ثابت رضي الله عنه بتكليفٍ من خليفة المسلمين أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومشورةِ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومعاونةِ أبي بن كعب رضي الله عنه، ومشاركة جمهور الصحابة ممّن كان يحفظ القرآن أو يكتبه[1]، وإقرارُ جَمْعٍ من المهاجرين والأنصار مظهرٌ من مظاهر العناية الربانية بحفظ القرآن الكريم، وتوفيقٌ من الله للأمة الإسلامية، وتسديدٌ منه لمسيرتها، ويتضمن ذلك ـ أيضاً ـ كما قال أبو زهرة: حقيقتين مهمتين تدلان على إجماع الأمة كلِّها على حماية القرآن الكريم من التحريف والتغيير والتبديل، وأنّه مصونٌ بعناية الله سبحانه وتعالى، ومحفوظٌ بحفظه وإلهام المؤمنين بالقيام عليه، وحياطته[2].

الأولى: أن عمل زيد رضي الله عنه لم يكن كتابة مبتدأة، ولكنه جمع مكتوب[3]، فقد كُتِبَ القرآن كلُّه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وعمل زيدٍ الابتدائي هو البحثُ عن الرقاع والعظام التي كان قد كُتِبَ عليها، والتأكد من سلامتها بأمرين، بشهادةِ اثنين على الرقعة التي فيها الايةُ والايتان أو الآيات، وبحفظ زيدٍ نفسه، وبالحافظين من الصحابة، وقد كانوا الجمعَ الغفيرَ، والعددَ الكبيرِ، فما كان لأحدٍ أن يقول: إنَّ زيداً كتب من غير أصلٍ مادي قائمٍ، بل إنّه أخذَ من أصلٍ قائمٍ ثابتٍ مادي، وبذلك نقرِّرُ أن ما كتبه زيد هو تماماً ما كُتِبَ في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنّه ليس كتابة زيد، بل ما كتب في عصره عليه الصلاة والسلام،

---

(1) الحضارة الإسلامية، توفيق الواعي ص(281).

(2) تميز الأمة الإسلامية (603/1).

(3) المصدر نفسه (603/1).

وأملاه، وما حفظه الروح القدس.

الثانية: أن عمل زيد لم يكن عملاً أحادياً، بل كان عملاً جماعياً من مشيخة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد طلب أبو بكر إلى كل ما عنده شيءٌ مكتوب أن يجيء به إلى زيد، وإلى كلِّ مَنْ يحفظ القرآن أن يدلي إليه بما يحفظه، واجتمع لزيدٍ من الرقاع والعظامِ وجريدِ النخل ورقيق الحجارة، وكل ما كَتَبَ أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعند ذلك بدأ زيد يرتبه ويوازنه ويستشهد عليه، ولا يثبِتُ ايةً إلا إذا اطمأن إلى إثباتها، كما أوحيت إلى رسول الله[1].

واستمرّ الأمر كذلك، حتى إذا ما أتمَّ زيدٌ ما كتب، تذاكره الناس، وتعرفوه، وأقروه، فكان المكتوب متواتراً بالكتاب، ومتواتراً بالحفظ في الصدور، وما تمّ هذا الكتاب في الوجود غير القرآن[2] . وايم الله . عناية من الرحمن خاصة بهذا القرآن العظيم[3]. وشرف للأمة الإسلامية تميزت به على سائر الأمم، ووفقها الله لخدمة كتابه في منهج علمي سبقت إليه جميعَ الأمم[4].

ثالثاً . جمع القرآن الكريم في عدد من المصاحف على عهد ذي النورين أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه:

1. الباعث على جمع القرآن في عهد عثمان رضي الله عنه:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أنّ حذيفة بن اليمان قَدِمَ على عثمان رضي الله عنه، وكان يُغازي أهل الشام في فتح أرمينية، وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزعَ

---

(1) دراسات في القران، أحمد خليل ص(90).

(2) تميز الأمة الإسلامية (604/1).

(3) دراسات تاريخية من القران الكريم، محمد بيومي ص(31 . 32).

(4) المصدر نفسه (604/1).

حذيفةَ رضي الله عنه اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفةُ لعثمان: يا أميرَ المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتابِ اختلافَ اليهود والنصارى.

فأرسلَ عثمانُ إلى حفصة أنْ أرسلي إلينا بالصُّحفِ ننسخُها في المصاحف، ثم نردُّها إليك، فأرسلت بها حفصةُ إلى عثمان، فأمرَ زيدَ بنَ ثابت، وعبدَ الله بن الزبير، وسعيدَ بن العاص، وعبدَ الرحمن بن الحارث بن هشام رضي الله عنهم، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرّهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيءٍ من القرآن؛ فاكتبوه بلسان قريش، فإنّما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصُّحف في المصاحف، ردَّ عثمان رضي الله عنه الصُّحفَ إلى حفصة، فأرسل إلى كلِّ أُفقٍ بمصحف ممّا نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كلِّ صحيفةٍ، أو مصحفٍ أن يُحرّقَ[1].

ويؤخذ من الحديث الصحيح أمور، منها:

أ ـ أنّ السببَ الحامل لعثمان رضي الله عنه على جمع القرآن مع أنّه كان مجموعاً، مرتّباً في صحف أبي بكر الصديق، إنّما هو اختلافُ قرّاء المسلمين في القراءةِ اختلافاً أوشك أن يؤدّي بهم إلى أخطرِ فتنةٍ في كتاب الله تعالى، وهو أصل الشريعة، ودعامة الدين، وأساس بناء الأمة الاجتماعي والسياسي والخُلُقي، حتى إنّ بعضهم كان يقول لبعض: إنّ قراءتي خيرٌ من قراءتك، فأفزعَ ذلك حذيفةَ، ففزع إلى خليفةِ المسلمين وإمامِهم، وطلب إليه أن يُدْرِكَ الأمة قبل أن تختلف، فيستشري بينهم الاختلافُ، ويتفاقم أمرُه، ويعظم خطبُه، فيُمسّ نصُّ القرآن، وتُحرّف عن مواضعها كلماته وآياته، كالذي وقع بين اليهود والنصارى من اختلاف كل أمة على نفسها

---

[1] البخاري، رقم (4987).

في كتابها.

ب ـ أن هذا الحديث الصحيح قاطعٌ بأنّ القرآن الكريم كان مجموعاً في صحف ومضموماً في خيط، وقد اتفقت كلمةُ الأمةِ اتفاقاً تاماً على أنَّ ما في تلك الصُّحف هو القرآن كما تلقته عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم في اخر عرضةٍ على أمين الوحي جبريل عليه السلام، وأنَّ تلك الصحف ظلت في رعاية الخليفة الأول أبي بكر الصديق، ثم انتقلت بعده إلى رعاية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، ثم عرف عمر حضور أجله، ولم يولِّ عهده أحداً معيناً في خلافة المسلمين، وإنّما جعل الأمر شورى في الرّهط المتصفين بالرّضا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أوصى بحفظ الصحف عند ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، وأنَّ عثمان اعتمدَ في جمعه على تلك الصُّحف، وعنها نقل مصحفه «الرّسمي»، وأنّه أمر أربعةً من أشهر قرّاء الصحابة إتقاناً لحفظ القرآن، ووعياً لحروفه، وأداءً لقراءاته، وفهماً لإعرابه ولغته: ثلاثة قرشيين وواحداً أنصارياً، وهو زيد بن ثابت صاحب الجمع الأول في عهد الصديق بإشارة الفاروق.

وفي بعض الروايات: أنّ الذين أمرهم عثمان أن يكتبوا من الصحف اثنا عشر رجلاً، فيهم أُبي بن كعب، واخرون من قريش والأنصار[1].

ج ـ ونأخذ من هذا: أن الفتوحات في عهد عثمان كانت بإذن وأمر من الخليفة، وأنّ القرار العسكري يصدرُ من المدينة، وأنّ الولايات الإسلامية كلها كانت خاضعة لأمر الخليفة عثمان في عهده، بل يدلّ على أنّ هناك إجماعاً من الصحابة والتابعين في جميع الأقاليم على خلافة عثمان، وقدوم حذيفة بن اليمان إلى المدينة، لرفع

---

[1] عثمان بن عفان، لصادق عرجون ص(171).

اختلاف الناس في قراءة القرآن، يدل على أنّ القضايا الشرعية الكبرى كان يستشار فيها الخليفة في المدينة، وأنَّ المدينة ما زالت دار السنة، ومجمع فقهاء الصحابة[1].

2 . استشارة جمهور الصحابة في جمع عثمان:

جمع عثمان رضي الله عنه المهاجرين والأنصار، وشاورهم في الأمر، وفيهم أعيانُ الأمة، وأعلامُ الأئمة، وعلماءُ الصحابة، وفي طليعتهم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وعرض عثمان رضي الله عنه هذه المعضلة على صفوة الأمة وقادتها الهادين المهديين، ودارسهم أمرَها، ودارسوه، وناقشهم فيها وناقشوه، حتى عرف رأيهم وعرفوا رأيه، فأجابوه إلى رأيه في صراحة لا تجعل للريب إلى قلوب المؤمنين سبيلاً، وظهر للناس في أرجاء الأرض من عقد عليه إجماعهم، فلم يعرف قط يومئذ لهم مخالف، ولا عرف عند أحد نكير، وليس شأن القرآن الذي يخفى على احادِ الأمة فضلاً عن علمائها وأئمتها البارزين[2].

إنَّ عثمان رضي الله عنه لم يبتدع في جمعه المصحف، بل سبقه إلى ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، كما أنه لم يضع ذلك من قبل نفسه، إنما فعله عن مشورة للصحابة رضي الله عنهم، وأعجبهم هذا الفعل، وقالوا: نعمَ ما رأيتَ، وقالوا أيضاً: قد أحسن، أي: في فعله في المصاحف[3].

وقد أدرك مصعب بن سعد صحابة النبي صلى الله عليه وسلم حين مشق[4] عثمان

---

[1] المدينة النبوية في فجر الإسلام والعصر الراشدي (244/2).
[2] عثمان بن عفان، لصادق عرجون ص(175).
[3] فتنة مقتل عثمان بن عفان، محمد الغبان (78/1).
[4] مشق في الكتابة: مد في حروفها وجودها.

رضي الله عنه المصاحف، فراهم قد أُعجبوا بهذا الفعل منه[1].

وكان علي رضي الله عنه ينهى مَنْ يعيبُ على عثمان رضي الله عنه بذلك، ويقول: يا أيها الناس لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا فيه إلا خيراً ـ أو قولوا خيراً ـ فوالله ما فعل الذي فعل ـ أي: في المصاحف ـ إلا عن ملأ منا جميعاً ـ أي:

الصحابة ـ واللهِ لو ولّيتُ، لفعلتُ مثل الذي فعل[2].

وبعد اتفاق هذا الجمع الفاضل من خيرة الخلق على هذا الأمر المبارك، يتبين لكل متجرِّدٍ عن الهوى أنّ الواجبَ على المسلم الرضا بهذا الصنيع الذي صنعه عثمان رضي الله عنه، وحفظ به القرآن الكريم[3].

قال القرطبي في التفسير: وكان هذا من عثمان رضي الله عنه بعد أن جمع المهاجرين والأنصار، وجلة أهل الإسلام، وشاورهم في ذلك، فاتفقوا على جمعه بما صح، وثبت من القراءة المشهورة عن النبي صلى الله عليه وسلم واطّراح ما سواه، واستصوبوا رأيه، وكان رأياً سديداً موفقاً[4].

رابعاً ـ هل المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة؟

ذهب الشيخ المحقق محمد صادق عرجون رحمه الله إلى أنَّ صحف الصِّدِّيق؛ التي كانت أصلاً للمصحف الإمام بإجماع المسلمين؛ لم تكن جامعةً للأحرف السبعة التي وردت في صحاح الأحاديث بإنزال القرآن عليها، بل كانت حرفاً منها، وهو الذي وقعت به العرضة الأخيرة، واستقرَّ عليها الأمر في اخر حياة رسول الله صلى

---

[1] التاريخ الصغير للبخاري (94/1)، إسناده حسن لغيره

[2] فتح الباري (18/9)، إسناده صحيح.

[3] فتنة مقتل عثمان بن عفان (78/1).

[4] الجامع لأحكام القران (78/1).

الله عليه وسلم، وإنما كانت الأحرف السبعة أولاً من باب التّيسير على الأمة، ثم ارتفع حكمها لما استفاض القرآن، وتمازج الناس، وتوحَّدت لغاتهم.

قال الإمام الطحاويُّ: إنَّما كانت السَّعة للناس في الحروف، لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم، لأنَّهم كانوا أمِّيين، لا يكتب إلا القليل منهم، فلمّا كان يشقُّ على كل ذي لغة أن يتحوَّل إلى غيرها من اللُّغات، ولو رَامَ ذلك لم يتهيّأ له إلا بمشقة عظيمة؛ وُسّع لهم في اختلاف الألفاظ، إذا كان المعنى متَّفقاً، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب، وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقدروا بذلك على حفظ ألفاظه، فلم يسعهم حينئذ أن يقرؤوا بخلافها.

وقال ابن عبد البرِّ: فبات بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كانت في وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك، ثمَّ ارتفعت تلك الضرورة، فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد[1].

وقال الطبري: إنَّ القراءة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة، وإنما كان جائزاً لهم، ومرخصاً لهم فيه، فلمّا رأى الصحابة أن الأمة تفترق، وتختلف إذا لم يجتمعوا على حرف واحد؛ أجمعوا على ذلك إجماعاً شائعاً، وهم معصومون من الضلالة[2].

وهذا الحرف الذي كتبت به صحف الإجماع القاطع، ونقل عنها المصحف الإمام؛ جامع لقراءات القرّاء السبعة وغيرها، ممّا يقرأ به الناس، ونقل متواتراً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنّ الأحرف الواردة في الحديث غير هذه القراءات[3].

---

(1) عثمان بن عفان، لصادق عرجون ص(180).

(2) المصدر نفسه ص(180).

(3) المصدر نفسه (180).

خامساً. عدد المصاحف التي أرسلها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار:

لما فرغ عثمان رضي الله عنه من جمع المصاحف، أرسل إلى كل أفق بمصحف، وأمرهم أن يحرقوا كلَّ مصحف يخالف المصحف الذي أرسله إلى الافاق، وقد اختلفوا في عدد المصاحف التي فرّقها في الأمصار، فقيل: إنها أربعة، وقيل: إنها خمسة، وقيل: إنها ستة، وقيل: إنها سبعة، وقيل: ثمانية.

أما كونها أربعة، فقيل: إنه أبقى مصحفاً بالمدينة، وأرسل مصحفاً إلى الشام، ومصحفاً إلى الكوفة، ومصحفاً إلى البصرة. وأما كونها خمسة، فالأربعة المتقدم ذكرها ومصحف لأهل مكة. وأما كونها ستة فالخمسة المتقدمة، والسادس اختلف فيه، فقيل: جعله خاصاً لنفسه، وقيل: أرسله إلى البحرين. وأما كونها سبعة، فالستة المتقدم ذكرها، والسابع أرسله إلى اليمن. وأما كونها ثمانية، فالسبعة المتقدم ذكرها، والثامن كان لعثمان يقرأ فيه، وهو الذي قُتِلَ وهو بين يديه[1].

وبعث رضي الله عنه مع كل مصحف مَنْ يرشدُ الناسَ إلى قراءاته بما يحتمله رسمه من القراءات مما صح وتواتر، فكان عبد الله بن السائب مع المصحف المكي، والمغيرة بن شهاب مع المصحف الشامي، وأبو عبد الرحمن السُّلمي مع المصحف الكوفي، وعامر بن قيس مع المصحف البصري، وأمر زيد بن ثابت أن يقرأئ الناس بالمدني[2].

من هذا الاستعراض يتضح أن حفظ القرآن الكريم قد تم بطريقة لم يحظ بها كتاب اخر في تاريخ البشرية كلها، وذلك لأن الله تعالى هو الذي تعهد بحفظه قائلاً: ﴿إِنَّا

---

[1] أضواء البيان في تاريخ القران، صابر حسن ص(77).

[2] المصدر نفسه ص 78، عثمان بن عفان، للمؤلف ص(256).

نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ 9].

فوفق الله سبحانه نفراً من عباده الصالحين ليقوموا بهذا الدور العظيم؛ في ظل من الرعاية الإلهية التي حفظت لنا القرآن حفظاً كاملاً، حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة، واية اية، وسورة سورة، في نفس لغة الوحي «اللغة العربية» على مدى يزيد على أربعة عشر قرناً، وتعهد ربنا تبارك وتعالى بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً؛ حتى يبقى القرآن العظيم شاهداً على الخلق أجمعين بأنّه كلام رب العالمين[1].

سادساً ـ الفرق بين جمع الصديق، وجمع عثمان رضي الله عنهما:

الفرق بين جَمْع أبي بكر وجمع عثمان: أنَّ جمع أبي بكر كان لخشيته أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حملته، لأنّه لم يكن مجموعاً في موضع واحد، فجمعه في صحائف مرتب الآيات على ما وقفهم عليه النبي صلى الله عليه وسلم.

وجمعُ عثمان كان لما كثُر الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرؤوه بلغاتهم على اتساع اللغات، فأدى ذلك إلى تخطئة بعضهم بعضاً، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتب الآيات والسور، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش، محتجاً بأنه نزل بلغتهم، وإن كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم دفعاً للحرج والمشقة في ابتداء الأمر، فرأى أنَّ الحاجة قد انتهت، فاقتصر على لغة واحدة[2].

* * *

---

[1] مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي ص (70 ـ 71).

[2] عثمان بن عفان، للمؤلف ص(253).

الباب الثاني : الإيمان بالكتب السماوية

الفصل الأول: أهمية الإيمان بالكتب السماوية.

الفصل الثاني: وجوب الإيمان بالكتب السماوية.

الفصل الثالث: الكتب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

الفصل الرابع: تحريف الكتب السابقة.

الفصل الخامس: القرآن الكريم نسخ الكتب السابقة كلها.

الفصل الأول : أهمية الإيمان بالكتب السماوية

1 . **الإيمان بالكتب السابقة ركن من أركان الإيمان،** لا يتم الإيمان إلا به.

2 . **الإيمان بالكتب السابقة يؤكّد وحدة الرسالات الإلهية،** وأنّ الإسلام جامعٌ لكلِّ الديانات السماوية، والمسلمون أولى الناس جميعاً بقيادة البشرية على نهج الإسلام، فالمؤمن يعتقدُ أنّ أي طائفة من أهل الكتاب يملكون أساساً وأصلاً لدينهم، وهذا ممّا يجعلُ أهل الكتاب قريبين من الإسلام والمسلمين لو أنصفوا، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى: 13].

3 . **الإيمان بالكتب الإلهية جزءٌ من الإيمان بالقرآن،** وجزءٌ من الإيمان بأنَّ الله سبحانه هو الهادي، وأنَّ هداية الله لم تنقطع عن البشر، فما مِنْ أمةٍ إلا وقد أنزل الله بها هدًى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: 24].

4 . **المسلم يؤمن أنّ القرآن قد اشتمل على كلّ ما سبقه من كتب،** وهو سليم من أي تحريف، فالقرآن يصدق بالكتب السابقة، وهو المرجع الوحيد لبيان ما فيها من حق، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48].

5 . **الإيمان بالكتب السابقة ينمي لدى المسلم الشعور بوحدة البشرية،** ووحدة دينها، ووحدة رسلها، ووحدة مصدرها، وأنّ الأمة الإسلامية ورثت العقائد السماوية ووحدة النبوات منذ فجر البشرية، والمحافظة على تراث العقيدة، وتراث النبوة، ورائدة

موكب الإيمان على الأرض إلى آخر الزمان.

6 . الإيمان بالكتب السابقة، ينقي روح المؤمن من التعصب الذميم ضد الديانات، وضد المؤمنين بالديانات، ما داموا على الطريق الصحيح[1].

والموقف الذي ينبغي أن يتّخذه المسلم من تلك الكتب «التوراة والإنجيل»، أن يؤمن بما ورد فيها مما قرره القرآن الكريم، أمّا ما وردَ مخالفاً أصول القرآن العامة فلا يؤمن به، بل يعتقدُ في بطلانه، أما ماعدا ذلك من القصص والمواعظ التي لم يذكرها القرآن، ولا تناقض أصوله فلا يصدقها ولا يكذبها، وذلك اتباعاً لما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا امنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان حقاً لم تكذبوهم، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم»[2].

فأخبار أهل الكتاب على ثلاثة أقسام:

الأول: ما علمنا صحته، وشهد له بالصدق ما بأيدينا من الوحي؛ فذاك صحيح.

الثاني: ما علمنا كذبه، ودلّ على كذبه مخالفته لما لدينا من الوحي.

الثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل، فلا نؤمنُ به ولا نكذبه، وتجوزُ حكايته لما أخرج البخاري في «صحيحه» أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «بلغوا عني ولو اية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[3].

* * *

---

[1] العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلي ص (211).

[2] البخاري رقم (4485)، وأحمد رقم (17225).

[3] البخاري رقم (3461).




يجيء ذكر الإيمان بالكتب السماوية في القرآن في صيغة الأمر تارة، وصفة للمؤمنين تارة أخرى، كما يجيءُ عدم الإيمان بالكتب المنزلة أو الإيمان ببعضها دون البعض الآخر علامة على الكفر تارة ثالثة.

1. فمن أمثلة الأمر قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136].

2 . كما جاء في صيغة مشابهة له في سورة [آل عمران: 48] قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾

3 . وقد يأتي الأمر في صيغة مجملةٍ في مثل قوله في سورة [النساء: 136]، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾

4 . أما وصف المؤمنين بأنهم هم الذين يؤمنون بالكتب المنزلة كلها فيجيء في مثل هذه الصيغة، قال تعالى: ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۞ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخرةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 1 . 4].

5 . أمّا وصف الذين لا يؤمنون بالكتب كلّها، أو الذين يؤمنون ببعضها، ويكفرون ببعض بأنهم كفّار، فيجيء في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخر فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾ [البقرة: 136].

6. وقال تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[البقرة: 90 . 91].

ومفهوم هذه الآيات وأمثالها، سواء كانت أمراً مباشراً، أو وصفاً للمؤمنين، أو وصفاً للكافرين، هو أنَّ الإيمانَ بالكتب السماوية كلها أمرٌ واجبٌ، لا يتمُّ إيمانُ المرء إلا به.

وذلك أمر بديهي بالنسبة للمؤمن، فما دام يؤمن بالله، وصدْقِ ما نزل من عنده من الوحي، وما دام الله يخبره في كتابه الكريم أنه قد أَنزل كتباً سابقة على الأنبياء والرسل، فالواجبُ أنّ يؤمنَ بهذه الكتب المنزلة، ويعتقد يقيناً أنها منزلة من عند الله، ولو شك في هذه الحقيقة، أو كذب بها فلن يكونَ مؤمناً على الإطلاق، وكيف يكون مؤمناً بالله حقاً، وهو يكذب خبراً اتياً إليه من الله، كذلك لو قال: إنّه يؤمن ببعض الكتب أنها منزلة من عند الله حقاً، ويشك ويكذّب أن غيرها من الكتب منزل من عند الله، فهل يكون مؤمناً بالله ولو زعم ذلك؟

إنّ من بين دعائم الإيمان: التصديق، فكيف يوجد الإيمان إذا كذَّب الإنسان حرفاً واحداً مما أخبره الله به؟ وما قيمةُ دعواه أنّه مؤمن بالله، أو مؤمن ببعض الكتب التي أنزلها الله؟ إنها دعوة مردودة على صاحبها؛ لأن الدليل العملي يكذّبها. ثم إن الكتب السماوية كلّها تحتوي على حقيقة واحدة، وهي الأمر بعبادة الله وحده.

ولقد اختلفت الكتب المنزلة في اللغات التي نزلت بها، لأن الله يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[إبراهيم: 4].

وهذه الكتبُ نزلَت على أقوامٍ مختلفين، فاختلفت من ثَمّ لغاتهم، كذلك اختلفت هذه الكتب فيما تحتويه من شرائع مختلفة للأقوام المختلفة، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة: 48].

ولكنّ القضيةَ الأصليةَ في هذه ضشالكتب كلّها واحدةٌ لم تتغير، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء: 25].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النحل: 36].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[الشورى: 13].

كذلك نزلت الكتبُ كلُّها لتنذرَ الناس بيوم الحساب، قال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاَقِ ۝ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لاَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝ يوم هُمْ بَارِزُونَ لاَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: 15-17].

وما دام الأمرُ كذلك، فالإيمانُ بالكتب كلّها هو كالإيمان بالكتاب الواحد سواء، والقضية عند المؤمن واضحة، ولا تحتاج إلى جدال، إنّما الجدال قد جاء في الحقيقة من أهل الكتاب؛ لأنّهم رفضوا أن يؤمنوا بأن القرآن منزل من عند الله، وحساب هؤلاء على الله[1]، كما أنّ أسلافهم قد حرَّفوا الكتب السماوية «التوراة والإنجيل».

---

[1] ركائز الإيمان، ص (194).

الفصل الثالث : الكتب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم

من الكتب التي أنزلت على الرسل السابقين ما سمّاه الله تعالى لنا في القرآن الكريم، ومنها ما لم يسمِّه لنا، فمن الكتبِ التي ورد ذكرها في القرآن الكريم:

1 . الصحف:

وكل الذي جاء في القرآن عنها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾ [طه: 133] وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ۝ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۝ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۝ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ۝ وأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۝ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى ۝ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾[النجم: 36 . 42] وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ وَالآخرةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ۝ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: 14 . 19].

2 . التوراة:

ذكر القرآن الكريم التوراة (18) مرة، وهو الكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على موسى عليه السلام، وخلاصة حديثِ القرآن عن التوراة تستطيعُ إجماله في الاتي:

أ . وصف القرآن التوراة بأنها هدًى ونور وفرقان، وضياءٌ وذكرٌ، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ﴾ [المائدة: 44] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأنبياء: 48].

ب . إن التوراة كتاب شامل لكل شيء، قال تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا

عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً﴾ [الأنعام: 154].

وتحدّث القرآن الكريم عن ألواح موسى عليه السلام، وقد وردت في ثلاثة مواضع، فقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ﴾ [الأعراف: 145] وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: 150] وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدىً وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: 154].

ج ـ إن الرسالات التي جاءت بعدها مصدقة لها، فلقد قال الله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ [المائدة: 46] وقال عن محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ۝ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[البقرة: 87 ـ 89].

د ـ إنّ القرآن تحدث عن بعض الذي جاء في التوراة، ولنأخذ هذين المثالين:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: 45].

الثاني: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: 157][1].

هـ ذكر القرآن الذين كلفوا بحمل أمانة«التوراة» منهم من حملها بأمانة، ومنهم من لم يحملها، فقال تعالى عن الصالحين منهم: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: 159].

وقال عن المفسدين منهم: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: 5] لكنّ هؤلاء أصبحوا هم الكثرة الغالبة، فأخذ القرآن لا يتحدّثُ عن حملة التوراة «بني إسرائيل» إلا ويعمهم بالخيانة ونقض الميثاق، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: 13]

وقال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 4].

و . أكد القرآن أن التوراة الموجودة الان بين أيدينا ليست هي التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام وإنما هي محرفة من قبل بني إسرائيل الذين خانوا العهد ونقضوا الميثاق[2] قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ۝ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: 78-79] وقال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ

---

[1] المحكم في العقيدة د. محمد عياش ص(183).

[2] المحكم في العقيدة ص(184).

اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 75] وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: 13][1].

3 . الإنجيل:

وذكر القرآن الكريمُ الإنجيل «12» مرة، ويكاد يكون حديث القرآن عن الإنجيل قريباً عن حديثه عن التوراة، إلا في بعض النقاط، والإنجيل هو الكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على عبده ورسوله عيسى عليه السلام.

أ . وصف القرآن الإنجيل بأنه هدى ونور وموعظة:

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: 46].

ب . ومما ورد في القرآن الكريم:

أنّ الإنجيل جاء مكملاً أو معدلاً لما جاء في التوراة من أحكام، ولم يصف القرآن الإنجيلَ بما وصف به التوراة من أنه كتاب شامل يفصل كل شيء، بل على العكس، جاء وكأنه يصفه بمهمة محدودة هي نسخُ بعضِ ما ورد في التوراة من أحكام، لحكمةٍ يعلمُها الله، يقول القرآن على لسان عيسى ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾[آل عمران: 50].

ولهذا ربط القرآن بينهما في مهمة عيسى عليه السلام فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ

---

[1] المصدر نفسه ص(184).

أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 48 . 49].

ج . هناك فرق واضح في اهتمام القرآن، فالظاهر اهتمامه برسالة موسى أكثر من الإنجيل، ويظهر هذا في عدد المرات التي ذكرت فيها التوراة «81» مرة بينما ذكر الإنجيل «12» مرة، وذكر موسى «136» مرة بينما لم يذكر عيسى إلا «25» مرة، هناك إشارة ربما تكون أظهرَ في الدلالة على اهتمام القرآن بالتوراة أكثر من اهتمامه بالإنجيل، وهي قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: 3029][1].

د . جاءت في الإنجيل كما في التوراة البشارة بالرسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: 157] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: 6][2].

---

[1] المحكم في العقيدة ص (185).

[2] العقيدة الإسلامية د. أحمد محمد جلي ص (197).

هـ . إنّ القرآن جاء مصدقاً أيضاً لرسالة عيسى عليه السلام كما هو مصدِّقُ لجميع الرسالات السابقة قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: 81] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ﴾ ﴿يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[البقرة: 97].

و . وتحدث القرآن عن حملة الإنجيل كما تحدّث عن حملة التوراة، فقسّمهم إلى قسمين: فئةٌ وقفت مع الإنجيل الحقّ، وأخرى كاذبةٌ كافرةٌ خائنةٌ، فقال عن الأولى: ﴿فَلَمَّا أَحسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: 52 . 53] وأما الثانية فهم: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ﴾ ﴿وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[المائدة: 14].

ز . ويخلص القرآن إلى أنّ الإنجيل الذي بين أيدينا الانَ ليس هو كلام الله، بل هو من تحريف المحرّفين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: 78 . 79].

والحقيقة أنّ القرآن لا يفصّل في مقدار التحريف الذي ورد على التوراة والإنجيل، وكأنّ هدفه فقط أن يقول لنا إنّ هذين الكتابين ليسا مصدرَ ثقة، لأن الأهواء

دخلتهما، أمّا التفصيل فلا نحتاجه نحن، وأيضاً فإنَّ مقدار التحريف مختلِفٌ زماناً ومكاناً ومذاهبَ[1]، فلم يهتم القرآن إلا بالذي فيه الفائدة للناس.

4 . الزبور:

هو الكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على داود عليه السلام، والزبورُ في اللغة هو الكتابُ المزبور أي المكتوبُ، وجمعه زُبُرٌ، وكل كتاب يسمّى زبوراً، قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر: 52] أي مسجّلٌ في كتب الملائكة، ثم غلب إطلاقُ لفظ الزبور على ما أنزل على داود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ [163].

وأخبر سبحانه وتعالى أنّ مما كتبه في الزبور وراثةُ الصالحين الأرضَ، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: 105] وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ [النساء: 163].

هذه هي الكتب السابقة التي سمّاها الله لنا في كتابه، إلا أنّه توجد كتب أخرى أُنزلت ولم تسمّ لنا، بل ذكرت مجملةً، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[الحديد: 25].

وعلينا أن نؤمنَ بهذه الكتب التي لم تسمَّ إجمالاً، كما أنّه لا يجوزُ لنا أن ننسب كتاباً إلى الله تعالى سوى ما نسبه إلى نفسه، وأخبرنا القرآن الكريمُ أنه من الكتب التي أنزلها تعالى على رسولٍ من رسله[2].

* * *

---

[1] المحكم في العقيدة ص (187).

[2] العقيدة الإسلامية، أحمد جلي ص (198).

الفصل الرابع : تحريف الكتب السماوية السابقة

أخبرنا الله في كتابه المنزل أنّ أهل الكتاب حرّفوا كتبهم، فلم تعد في صورتها التي أنزلها.

فقد جاء عن اليهود قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [النساء: 46] وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾[المائدة: 13] وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾[المائدة: 41].

وجاء عن النصارى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[آل عمران: 78].

وإذ تدبرنا هذا الأمرَ وجدنا أنّ هناك ثلاثةَ أنواعٍ من التحريف على الأقل قد وقعت في كتبِ أهلِ الكتاب، وكلُّها وردتِ الإشارةُ إليه في القرآن[1].

1 ـ تحريف المعنى مع بقاء اللفظ على ما هو عليه:

إن الله قد حرّم الربا في جميع كتبه المنزلة: التوراة والإنجيل والقرآن. والتوراةُ التي بين أيدي اليهود اليوم ـ رغم كل ما حدث فيها من تحريفات شنيعة ـ ما تزال تحمل نصّاً بتحريم الربا، ونصاً بوجوب الأمانة في التعامل مع الناس، ومع ذلك فاليهود ـ كما هو معلوم ـ يتعاملون بالربا على نطاق دولي، ويسلبون عن طريقه أموالَ الناس

---

[1] ركائز الإيمان ص (195).

بغير حق، وعن ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۝ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: 160 . 161].

فكيف تحايلوا على النصّ الموجود في كتابهم، أو بعبارةٍ أخرى حرّفوه ليبيحوا لأنفسهم التعامل بالربا مع الناس، وسلب أموالهم؟

لقد قالوا: إنّ الربا غيرُ جائز في التعامل مع اليهود، وكذلك الأمانةُ واجبةٌ في تعامل اليهود بعضهم مع بعض، أمّا إنْ كان الذي نتعامل معه من غير اليهود فلا بأسَ عليك أن تتعامل معه بالربا، ولا بأس عليك أن تأكلَ ماله، وذلك ما وردت عنه الإشارةُ في سورة ال عمران، قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 75].

أي: إنّهم قالوا: لا حرجَ علينا في سلب أموال «الأميين» الذين ليسوا يهوداً، ويزعمون أنّ الله أباحَ لهم ذلك، وهم يعلمون أنّ هذا كذبٌ على الله، فإنّه حرّم عليهم الربا إطلاقاً، وحرّم عليهم سلبَ أموالِ الناس جميعاً، أُميين وغير أُميين[1].

2 . التحريف بالتغيير والإضافة:

- فأمّا اليهود فقد أضافوا إلى التوراة مجموعةً من القصص والأساطير ما أنزل الله بها من سلطان، بعضُها يصل إلى حَدِّ الفُحش في حقِّ أنبيائهم، وما من أنبيائهم إلا ألصقوا به سلوكاً لا يليقُ بالرجل العادي، فضلاً عن النبي المعصوم، بل إنهم تجرؤوا

---

[1] ركائز الإيمان ص (197).

على مقام الألوهية، وقالوا في حق الله سبحانه وتعالى كلاماً لا يخرجُ من فم مؤمن قط، ولا يخطر له على بال، وقد ظلوا يردّدون هذه الأقوال وغيرها حتى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، وسجل عليهم القرآن أقوالهم، ومعتقداتهم الفاسدة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: 181 . 182].

- وأما الإنجيل فيحوي من التغيير والإضافة ما لا يقلُّ سخفاً وبشاعة، ولكن في اتجاه اخر، ذلك هو تأليه عيسى عليه السلام، والزعم بأنّه ابن الله، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: 78 . 80].

وأسطورةُ ألوهية عيسى وبنوته لله وكون الله ثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس، كلُّها إضافات أضيفت إلى الإنجيل المنزل من عند الله، كتبوها بأيديهم، وزعموا أنها من عند الله، وقد ردّ القرآن عليهم ردّاً مفصلاً في أكثر من سورة، وبيّن حقيقة التوحيد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ لَهُمْ إِلاَّ

مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[المائدة: 116 . 117].

ولكنّ المهم أنّ أناجيلهم الأربعة المعتمدة «إنجيل مرقص» و«إنجيل لوقا» و«إنجيل متى» و«إنجيل يوحنا»[1]، متضاربةٌ بعضها مع بعض في هذا الشأن، مما ينفي أن تكون كلّها من مصدر واحد، فضلاً عن أن يكون مصدرُها هو الله، وفضلاً عن ذلك كله فإنّ هناك إنجيلاً خامساً هو «إنجيل برنابا» منعتِ الكنيسةُ تداوله، وأحرقت ما وقع في يدها من نسخه، وهددت مَنْ يوجدُ عنده بإصدار قرار حرمانٍ ضده، أي: الحرمان ـ في زعمهم ـ من رضوان الله ومغفرته ـ لأنه يقرر أنّ عيسى رسولٌ بشرٌ، وليس ربّاً ولا إلهاً، وأنّه بَشَّرَ ببعثةِ محمد صلى الله عليه وسلم من بعده[2].

3 ـ التحريف بالكتمان:

فهو على نوعين: كتمانُ أحكام الشريعة، وكتمانُ الإشارة إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

أما كتمان أحكام الشريعة فالقرآن يسجّل عليهم أنّهم أمروا بعدم الكتمان فعصوا الله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: 187]

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: 146].

ويسجّل عليهم أنّ الله أخذ عليهم ميثاقاً بأنْ يؤمنوا بكلِّ رسولٍ يأتي من عند الله

---

(1) ركائز الإيمان ص (198).

(2) المصدر نفسه ص (198).

مصدقاً لما معهم، كما يسجّل عليهم أنَّ خبر بعثة محمد صلى الله عليه وسلم موجود عندهم في التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: 81 . 82].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[الصف: 6]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف: 157].

وعلى الرغم من هذه الوصايا كلّها لأهل الكتاب فقد عَصَوْا أمر ربِّهم، وكتموا الحق الذي أُمروا بإعلانه على الناس.

وأمّا إنكارهم لبعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد اجتهدوا في محْوِ كلِّ ذكر صريح له عليه الصلاة والسلام في كتبهم، وأخفوه عن الناس، ومع كل اجتهادهم هذا فقد بقيتْ إشاراتٌ في التوراة والإنجيل، لا يمكن تفسيرها إلا بأنها إشارةٌ لمجيء الرسول صلى الله عليه وسلم[1].

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ

---

[1] ركائز الإيمان ص (200).

وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: 146]. وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾[البقرة: 109]. وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾[البقرة: 89، 90].

* * *




شاء الله سبحانه وتعالى أن ينسخَ الكتب السابقة كلّها وينزّل كتابه الأخير ليبقى في الأرض إلى قيام الساعة، كان كل رسول من السابقين يرسَلُ إلى قومه خاصة، بينما بُعِثَ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إلى البشرية كافة، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158]. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: 28].

وكذلك كانت الكتب السابقة تنزل لأقوام معينين، بينما أنزل القرآن للناس كافة، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم: 52].

لذلك اقتضت مشيئة الله أن ينسخ هذا الكتاب الشامل الكامل ما سبقه من الكتب جميعاً، ويهيمن عليها، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ۝ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: 48. 50].

ولم يعد يقبل من أحد أن يستمسك بما سبق من الكتب ويرفض القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة: 68].

وإقامة التوراة والإنجيل بالنسبة لأهل الكتاب المخاطبين بهذه الاية معناها: الإقرار بوحدانية الله، ذلك أنّ التوراة والإنجيل المنزَّلين من عند الله يقرران هذه الوحدانية تقريراً جازماً، ولكنَّ أهل الكتاب حرفوهما، فالمطلوب منهم هو إقامتها مرة أخرى، أي: الرجوع إلى أصل التوحيد، ثم إنّ التوراة والإنجيل قد ذكرا محمداً صلى الله عليه وسلم وأمرا باتباعه عند ظهوره، فإقامتهما معناها والإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم، وما نزل عليه من وحي، أي: الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران: 19].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: 85].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسُ محمّدٍ بيده، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولا يؤمنُ بالذي أرسلت به إلا كان من أصحابِ النارِ»[1].

* * *

[1] صحيح مسلم بشرح النووي (160/2).

خلاصة الباب

وفي خلاصة هذا الباب يتّضحُ لنا:

1 ـ أنّ الله عز وجل أنزل كتباً ورد ذكرها في القرآن الكريم، هي بترتيبها التاريخي كما يأتي: صحف إبراهيم ـ التوراة ـ الزبور ـ الإنجيل ـ القرآن.

2 ـ وأنّ هذه الكتب جميعاً تحتوي على حقيقة أساسية هي وحدانية الله عز وجل، ووجوبُ إخلاصِ العبادة له من غير شريك، وطاعتُه فيما يأمر به وينهى عنه.

3 ـ أنّ الكتب السابقة على القرآن لم يعد لها وجودٌ في صورتها المنزلة؛ لأنها إما ضاعت، ولم يعد لها أثر معروف، كصحف إبراهيم، وإمّا حرفت على أيدي أصحابها كالتوراة والإنجيل.

4 ـ أنّ التحريف الغالبَ إمّا بالتغيير والإضافة، وإما بالكتمان، ومن أبرز الإضافات أساطيرُ التوراة، وقصةُ تأليه عيسى عليه السلام، وقصةُ التثليث، ومن أبرز ما كتموه الإخبارُ عن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم.

5 ـ أنّ مشيئة الله قد اقتضت نسخَ الكتب السابقة كلّها ما ضاع منها وما حرف، وأنزل القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيمناً عليه، وناسخاً لكل ما سبق تنزيله من عند الله.

* * *

الخاتمة

وبعد؛ فهذا ما يسره الله لي من الحديث عن الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية في هذا الكتاب، وقد سميته «الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية»، فما كان فيه من خطأ، فأستغفرُ الله تعالى، وأتوبُ إليه، واللهُ ورسولُه بريئان منه، وحسبي أني كنتُ حريصاً ألا أقع في الخطأ، وعسى ألا أحرمَ من الأجر.

وأدعو الله أن ينفعَ بهذا الكتاب الإنسان أينما وجد، ويكون سبباً في زيادة إيمانه، وهدايته، أو تعليمه، أو تذكيره، وأن يذكرني من يقرؤه من إخواني المسلمين في دعائه، فإنّ دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابةٌ إن شاء الله تعالى. وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: 69].

وبقول الشاعر:

يا مُنْـــــزِلَ الآيات والفُرقـــــانِ ... بيـــني وبينـــكَ حُرْمَـــةُ القـــرآن

اشـرحْ بـه صـدري لمعرفـةِ الهُـدَى ... واعصـمْ بـه قَلْـبِي مِـنَ الشَّـيطانِ

يَسِّـرْ بــه أَمْـرِي واقْـضِ مــاربي ... وأَجِـرْ بــه جَسَـدِي مــن النِّـيَرانِ

واحْطُـطْ بـه وزري وأَخْلِـص نيَّـتي ... واشْـدُدْ بـه أَزْرِي وأَصْـلِحْ شَـاني

واكْشِـفْ بـه ضُـرِّي وحَقِّـق تـوبتي ... وأَرْبِـحْ بــه بَيْعِـي بـلا خُسْـرانِ

طَهِّـرْ بـه قلـبي، وصـفِّ سـريرتي ... أَجْمِـلْ بـه ذكـري وَأَعْـلِ مَكَـاني

واقْطَـعْ بـه طَمَعِـي وشَـرِّف همَّـتي ... كَثِّـرْ بــه وَرَعِـي وَأَحْـيِ جَنَـاني

أَسْـهِرْ بــه لَيْلِـي وَأَظْـمِ جَـوَارِحِي ... أَسْـبِلْ بِفَـيْضِ دموعهـا أجْفَـاني

وامْزُجْهُ يا رَبِّ بِلَحْمِي مَعْ دَمِي ... واغْسِلْ بِه قَلْبِي مِنَ الأَضْغَانِ

أَنْتَ الذي صَوَّرْتَنِي وخَلَقْتَنِي ... وَهَدَيْتَنِي لِشَرَائِعِ الإِيْمَانِ

أَنْتَ الَّذي عَلَّمْتَنِي ورَحِمْتَنِي ... وَجَعَلْتَ صَدْرِي وَاعِيَ القرآن

أَنْتَ الَّذي أَطْعَمْتَنِي وَسَقَيْتَنِي ... مِنْ غَيْرِ كَسْبِ يَدٍ ولا دُكَّانِ

وَجَبَرْتَنِي وَسَتَرْتَنِي وَنَصَرْتَنِي ... وَغَمَرْتَنِي بِالفَضْلِ والإِحْسَانِ

أَنْتَ الَّذِي اوَيْتَنِي وَحَبَوتَنِي ... وَهَدَيْتَنِي مِنْ حَيْرَةِ الخُذْلانِ

وَزَرَعْتَ لِي بَيْنَ القُلُوْبِ مَوَدَّةً ... والعطف منك برحمةٍ وحَنَانِ

وَنَشَرْتَ لِي فِي العالمينَ مَحَاسِناً ... وَسَتَرْتَ عَنْ أَبْصَارِهِمْ عِصْيَانِي

وَجَعَلْتَ ذِكْرِي في البَرِيَّةِ شائِعاً ... حَتَّى جَعَلْتَ جَمِيْعَهُم إِخْوَانِي

واللهِ لو عَلِمُوا قَبِيْحَ سَرِيْرَتِي ... لأَبَى السَّلامَ عَلَيَّ مَنْ يَلْقَانِي

وَلأَعْرَضُوْا عَنِّي وَمَلُّوا صُحْبَتِي ... ولَبُؤْتُ بَعْدَ كرامةٍ بِهَوَانِ

لكِنْ سَتَرْتَ مَعَايِبِي ومَثَالِبِي ... وَحَلِمْتَ عن سَقْطِي وعن طُغْيانِي

فلَكَ المَحَامِدُ والمَدَائِحُ كلُّها ... بِخَوَاطِرِي وَجَوَارِحِي وَلِسَانِي

سبحانك اللهمّ وبحمدك، أشهدُ أن لا إله إلاّ أنتَ، أستغفرك، وأتوب إليك.

* * *

فهرس الموضوعات




كتب صدرت للمؤلف

1. السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث
2. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه شخصيته وعصره
3. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه شخصيته وعصره
4. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شخصيته وعصره
5. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه شخصيته وعصره
6. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب شخصيته وعصره
7. الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط
8. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم
9. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا
10. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي
11. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين
12. الوسطية في القرآن الكريم
13. الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار
14. معاوية بن أبي سفيان شخصيته وعصره
15. عمر بن عبد العزيز شخصيته وعصره
16. خلافة عبد الله بن الزبير
17. عصر الدولة الزنكية
18. عماد الدين زنكي




19 . نور الدين محمود

20 . دولة السلاجقة

21 . الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد

22 . الشيخ عبد القادر الجيلاني

23 . الشيخ عمر المختار

24 . عبد الملك بن مروان بنوه

25 . فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة

26 . حقيقة الخلاف بين الصحابة

27 . وسطية القرآن في العقائد

28 . فتنة مقتل عثمان

29 . السلطان عبد الحميد الثاني

30 . دولة المرابطين

31 . دولة الموحدين

32 . عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج

33 . الدولة الفاطمية

34 . حركة الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي

35 . صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس

36 . استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ﷺ) دروس مستفادة من الحروب الصليبية

37 . الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء

38 . الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين

39 . المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار

40 . سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك

41 . الإيمان بالله جل جلاله (1)

42 . الإيمان باليوم الاخر (5)

43 . الشورى في الإسلام

44 . السلطان محمد الفاتح

45 . الإيمان بالقدر (6)

46 . الإيمان بالملائكة (2)

47 . الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية (3)



د. علي محمد محمد الصلابي

مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام 1383 هـ/ 1963م

- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام 1993م، وبالترتيب الأول.

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام 1996م.

- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999م.

- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:

السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث

سير الخلفاء الراشدين

الدولة الحديثة المسلمة

وسطية القرآن الكريم في العقائد.

صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.

تاريخ كفاح الشعب الجزائري

العدالة والمصالحة الوطنية

وآخر مؤلفاته "الإباضية. مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج".